الدكتور ديزيره سقال

بحوث إسلاميّة

منشورات ميريم

الدكتور ديزيره سقال

بحوث إسلاميّة

منشورات ميريم

الإسلام وأهل الذمة

(بحث في علاقة الإسلام بالديانات الأخرى)

منشورات ميريم

© ميغا هامو للإعلان والنشر

ص.ب: ٧٠١٦١ ـ انطلياس ـ لبنان

تلكس: LE ـ ٤٢٠٠٧

هاتف: ٤٠٦٤٩١(٠١) - ٤٥٠٠٦٢(٠١)

٤٢٩٢٨٤(٠١) - ٤١٤٩١٩(٠١)

الطبعة الأولى - ١٩٨٩

مقدمة

قبل الإسلام، كانت الجزيرة العربية مجتمعاً لديانات كثيرة تختلف ما بينها، منها منبعه البلاد الأخرى الشرقية (كالفرس)، ومنها منبعه البلاد الخارجية الغربية كبيزنطية وأوروبة بشكل عام. إلا أن الديانة التي كانت الأكثر انتشاراً هي الوثنية. والعرب الوثنيون كانت عبادتهم تشمل كلاً من الأصنام والأوثان:

- فالصنم تمثال له شكل معين، كـ(هُبل) و(العُزّى) وغيرهما. وبعض هذه الآلهة مشابه لآلهة اليونان وبلاد ما بين النهرين والرومان والفينيقيين... فـ(اللات) مثلاً هي إلهة الخصب المشابهة لعشتروت الفينيقية وعشتار في حضارة ما بين النهرين واوزيريس الفرعونية.

- والوثن وهو نصب لا شكل معيناً له، كالحجر الأسود.

وقد يكون الوثن حجرياً أو خشبياً.

ومن الديانات الأخرى النصرانية، ومركزها الرئيس بيزنطية؛ وأهم مواقعها نجران في شبه جزيرة العرب. واليهوديّة، ولكن اليهود كانوا قِلّة، لم يشكلوا كبير خطر على الإسلام فيما بعد. ومن اليهود السموأل. وعُرف الصابئة وهم، كما يُرى، فرع من النصارى. آمنوا بالمعمودية وسكن العديد منهم قرب موارد المياه. وعرف الزرادشتيون (المجوس)، وهؤلاء مركز ديانتهم الرئيس بلاد فارس (ايران). عبدوا النار على أنها رمز لإله الخير. وتنقسم هذه الديانة إلى ثلاثة أقسام:

- فمنهم من تبع تعاليم زرادشت. وقد قال بصراع دائم بين إله الخير (أهورا مُزدا) وإله الشر (أهريمان). ولكن ديانة زرادشت تفاؤلية، تقول بأن الغلبة حاصلة في النهاية لإله الخير، وعلينا أن نساعده. وكان لهم كتاب مقدس هو «الأوفستا».

- ومنهم من اتبع تعاليم ماني. وقد ذهب مذهب زرادشت. ولكنه كان متشائماً، فرأى أن الغلبة هي لإله الشر، ولذا علينا أن نتقشف ونعيش زاهدين، لنساعد الخير على الصمود.

- ومنهم من تبع تعاليم مزدك. وقد ذهب هذا مذهب زرادشت. وكان يدعو إلى آراء اشتراكية - اذا صح التعبير - . وألف أتباعه فيما بعد فرقاً شذّت عن التعاليم الأساسية،

فانتهكت الأعراض، واستلبت البيوت باسم المساواة، ما حدا الدولة على محاربتهم للقضاء عليهم. وثمة مذاهب أخرى كالديصانية والمرقونية وغيرها.

اليهودية: كانت منتشرة في شبه الجزيرة العربية في عدد من القبائل، ومركزها يثرب. وهؤلاء اليهود قسمان: قسم نزح الى المدينة، والآخر تهوّد.

وهؤلاء مستعمرات، بعضها في فدك وبعضها في تيماء، وبعضها في خيبر؛ إلا أن أهمها كان في يثرب التي عاش فيها من القبائل اليهودية بنو النضير وبنو قريظة وبنو قَيْنُقَاع. وعمل اليهود على نشر ديانتهم في أنحاء البلاد وأصابوا نجاحاً كبيراً في اليمن. وتقوم ديانتهم على تعاليم التوراة وما جاء فيها من تشريعات دينية ودنيوية.

والديانة اليهودية في شبه جزيرة العرب تأثرت إلى حد كبير بالثقافات اليونانية لأنها عاشت في ظلها - ولا سيما الثقافة الهلينية، وهي مزيج من ثقافة الحضارتين اليونانية والفينيقية.

النصرانية: كانت للنصرانية آنذاك كنائس. وانقسمت الى مذهبين: النسطورية واليعقوبية: الأولى ترى في المسيح بشراً وحسب، ومركزها الحيرة. والثانية ترى فيه بشراً وإلهاً في آن معاً، ومركزها بلاد الغساسنة. وكانت نجران أول موطن للنصارى، يديرها السيد والعاقب والاسقف. فالسيد هو الرئيس الحربي ومدير الأمور في الخارج. والعاقب اختصاصه

الأمور الداخلية. والاسقف يهتم بالأمور الدينية. وكعبة نجران كانت للعرب، تحج اليها قبل أن تنتشر النصرانية. ومن أشهر الأساقفة قِسّ بن ساعدة. وقد استعان النصارى بالأحباش عندما غزاهم اليمنيون اليهود بقيادة «ذونواس»، فأنجدهم سكان الحبشة المسيحيون، وغزوا بلاد العرب عام ٥٢٢م؛ ثم عام ٥٢٥م. وهزموا «ذونواس»، وأسسوا مستعمرة حبشية على شاطئ البحر الأحمر، وحكموا تِهامة؛ استمر حكمهم حتى عام ٥٧٥م. إذ غزا الفرس بلاد اليمن واحتلوها وطردوا الأحباش منها. واستمرت النصرانية في نجران حتى عهد عمر بن الخطاب الذي أجلى السكان عنها، وهاجر أكثرهم الى العراق(١).

وانتشرت المسيحية كثيراً حتى قيل في قبيلة تغلب: «لو تأخر الإسلام قرناً لأكلت تغلب العرب». وقد أدخل النصارى ألفاظاً وتراكيب على اللغة العربية. فأمية بن أبي الصلت علّم العرب «باسمك اللهم». وقِسّ أول من قال: «أما بعد». وكان أُمَيَّة المذكور يستعمل في شعره ألفاظاً لا تعرفها العرب أخذها من الكتب القديمة. فمنها في قوله:

قَمَرٌ وساهورٌ يُسَلّ ويُغْمَدُ

وسمى الله «السلطيط»، وسماه في موضع آخر

---

(١) أحمد أمين، فجر الاسلام، دار الكتاب العربي، ط ١٠، ١٩٦٩، ص ٢٧. وسوف تفصل هذا لاحقًا.

«التّغرور» . . . الخ(٢) . وحملت النصرانيــة بـذور الحضــارة اليونانية ؛ فرجال الدين كانوا فـلاسفة ، قبـل أن يكونـوا رجال دين .

وكانت الوحـدة الإجتماعيـة الأساسيـة هي القبيلة ، والرابط بين الأفراد العصبية . وكان البـدو يعيشون عـلى الغزو والثأر ، ويحتقرون الصناعة والتجارة .

ولم تعرف المرأة حقوقاً مسـاوية لحقـوق الرجـل ، وان برزت بعض النسـاء في المجتمـع كتُـماضُر بنت عمـرو (الخنســاء) . وعرفت بعض القبائل عادة الوأد ـ أي دفن الفتاة حية خوفاً من أن تجلب العار لأهلها عندما تكـبر ـ ، لكن الإسلام حـرّم هذه العادة . وعندما ظهرت الدعوة الإسلامية ، حارب النبي الوثنية وعاداتها ، وقضى عليها مع أتباعه بعـده قضاء مـبرماً . كـما أمر ، اجتماعياً ، بترك العصبية القبلية واحلال الرابطة الدينية محلهـا ، داعيًا إلى الجهاد المقدس ذوداً عن الإسلام ، وسبيلاً للوصول إلى الجنة . وكان هذا سبباً مهـماً من أسباب افتتـاح العرب الأمم الأخرى ، وتأسيس امبراطوريتهم العظيمة ، إذ توسعوا حتى وصلوا إلى السند والهند وبلاد الصين شرقاً ، والاندلس

(٢) الموضع نفسه .

غرباً، فكـانت لهم إحدى اكـبر الامبراطـوريات في تـاريخ الإنسان. والفتح حتّم أن تكون للشعوب المغلوبة أوضاعـاً خاصة، لأن الفتح كان لسبب ديني أولاً، والبـلاد المفتَتَحة كان فيها مزيج من الشعوب ـ ذلك أنها عرفت بدورها قبائل تسكن فيها، كالقوط في الأندلس، والبربر في شمال أفريقية. وقد راعى الإسلام هذه الظروف، فأسلم الكثيرون. ومن لم يُسلم من أهل الكتاب، أي النصـارى واليهود والصـابئة، سُمح لهم بممارسة دينهم داخل الدولة، شريـطة دفع جـزية معينة. أما من لم يكن من أهل الكتاب كالمشركين فلهم أن يختـاروا بـين الاسـلام والسيف. استمـر هـذا حتى العصر العباسي، حين أدخل في حكم الذميين المجوس. كل ذلك سوف نأتي على تفصيله لاحقاً.

سنحاول فيما يلي أن نعرض نقاط الالتقاء والافتراق الرئيسـة بين الديانات التوحيدية الثلاث:

١ً- آمنت هذه الديانات بالانبياء المرسلين كموسى واسحق ويعقوب وعيسى (المسيح) وغيرهم، وبالكتب السماوية المقدسة أي بالقرآن والتوراة والإنجيل.

٢ً- آمنت بـالحشر وبعث النفس بعد المـوت، وبـالعقـاب والثواب.

٣ً- آمنت بوحدانية الله.

أما نقاط الافتراق فهي التالية:

١ً- أنكر القرآن أن عيسى بن مريم هو ابن الله أو الله، واعتبره نبياً فحسب: «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم» (المائدة/١٦).

٢ً- التقت التوراة والقرآن في وجوب الأخذ بالثأر، وخالفهما الانجيل. تقول التوراة: «الكسر بالكسر والعين بالعين والسن بالسن، كالعيب الذي يحدثه في الانسان يُحدث فيه.» (الأحبار/٢٥ - آية ٢٠) وتقول: «وان تأتي ضرر تبيء نفساً بنفس وعيناً بعين وسناً بسن ويداً بيد ورجلاً برجل وكيّاً بكيّ وجراحة بجراحة ورضاً بِرَضّ». (الخروج/٢٠ - آية ٢٣ - ٢٤ - ٢٥). ويقول القرآن: «وكتبنا عليهم أن النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن والأنف بالأنف والجروح قِصاص فمن تصَّدق به فهو كفّارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون». (المائدة/٩٤).

٣ً- رفض القرآن قضية التثليث واعتبرها شركاً، ولذا نعت فيها بعد النصارى بالكفار: «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله واحد وإن لم ينه عما يقولون لَيَمَسَّنَّ الذين

كفروا منهم عذاب أليم». (المائدة/٧٣).

٤ً- ركز القرآن والتوراة على الكثير من الأمور الدنيوية ولم يركز عليها الإنجيل، بل كانت أموره دينية محضاً، الا لِماماً.

١ - الإسلام - علاقته بأهل الذمة:

بعد أن امتدت الفتوحات الاسلامية الى خارج شبه الجزيرة العربية، موسّعة انتشار المسلمين ورقعة أرض الاسلام، وبعد ان بات الشعب المسلم قوياً، دعوته منتشرة في أمصار كثيرة، كان من البدهي أن يتمّ اختلاط بين الشعوب. ولّما كانت الدعوة الاسلامية تتلاقى في كثير من النواحي مع دعوة اليهود والمسيحيين، فقد هادنها الكثيرون منهم، فاتسعت، وعاملهم النبي والمسلمون بالحسنى: «لا اكراه في الدين» (البقرة/٢٥٥) - «وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم. قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين». (البقرة/١١٠)، وحاولوا أن يقربوهم منهم، لأن أهداف ديانتهم واحدة. ونجحوا في ذلك، فأسلم

كثيزهم. ثم عندما قوي النبي والمسلمون، ونهضوا بالأمر لم يعادوهم. وقد دعي المسيحيون «النصارى» لأنهم نـاصروا الاسلام، اذ رأوا فيه قرباً من دياناتهم. وعندما استتب له الأمر أصبح له ذمة عليهم: «ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة النبي رسول الله». . ولا سيما أن بين القرآن والتوراة، وأن بينه وبين الانجيل أحياناً، تقارباً كبيراً، نقول، أصبح له عليهم ذمة، فلقبوا بأهل الذمة، وصاروا يدفعون جزية للدولة الاسلامية، ويمارسون دياناتهم، وطقوسهم كما يرتأون، دونما ردع او اعتراض، فقد أوصى النبي بأن يُرْأف بهم. وأهل الذمة هم أبناء الديانات التوحيدية المنزلة ـ وهم الذين يسميهم القرآن «أهل الكتاب»، أي من كان لهم كتاب ديني فيه شرائعهم ودياناتهم (المسيحيون واليهود والصابئة المعروفون بنصارى القديس يوحنا، وكانوا يسكنون عند مصب الفرات). هؤلاء ذكرهم القرآن مرتين صراحة: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون» (البقرة/٦١). و: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله ينصر بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد». (الحج/١٧).

نستنتج من هذه الآيات أن موقف الاسلام من أهل الذمة كان توفيقياً الى حد كبير. على أن ثمة نقاط افتراق بينهما تؤخذ

بعين الاعتبار، كقضية الثالوث الاقدس التي اعتبرت في الاسلام شركاً، ولم ينظر اليها على أنها ثلاثة أقانيم في إلـه واحد. وفي التوراة تلميح الى أن المسيح هو الكلمة، والكلمة هو الله (فالمسيح المنتظر، هو الله). والقرآن يخالف التوراة في هذا، ويعتبره نبياً فحسب (المائدة/١٦). بيد أن الحظية الخاصة التي حصل عليها أهل الكتاب من النبي كانت أمراً عظيماً، فالنبي احترم التوراة والكتب المقدسة، فلم يكن مفروضاً على أهل الذمة حمل السلاح والجهاد في سبيل الدين الاسلامي، لأن هذا الأمر يتعلق بالمسلمين فحسب. ولكن كان عليهم ان يدفعوا الجزية مقابل حماية المجتمع الاسلامي لهم. هكذا حظي أهل الذمة بعناية خاصة، وبنوع من الحرية، شريطة دفع الجزية. وارتبطوا مباشرة برؤسائهم الروحيين في كل قضاياهم المتعلقة بالامور المدنية والقضائية والجنائية، الا في حالة واحدة، وهي عندما تمس هذه القضية المسلمين، أو تمتّ اليهم بصلة. أما ما جاء في الشريعة الاسلامية، فلم يكن ليطبق على أهل الذمة، لأنه لا يعني الا المدينين بالاسلام. صحيح أن العلاقات بين الاسلام واهل الذمة قد تأزمت قليلا في أيام عمر بن الخطاب، وصحيح أنه نُسب الى الامام علي بن أبي طالب نعته إياهم بخنازير العرب، وأنهم اضطهدوا أحياناً، وأن نظام الجزية ظل مطبقاً حتى آخر العهد العثماني، بل ظل مرعياً خلال عهد سلطات

الانتداب في العراق وسورية ولبنان وفلسطين، إلا أنهم حُظوا بمعاملة خاصة. وانحصرت معاملة الذميين في المرحلة الأولى بأصحاب الاديان التوحيدية فقط: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون». (التوبة/ ٢٩) و: «كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل اكثرهم لا يؤمنون». (البقرة/٩٩).

والجزية «ضريبة على الرأس يدفعها غير العرب... من نصارى ويهود وصابئة، ثم مجوس (في العصر العباسي). يدفعها الرجل فقط لا النساء ولا الصبيان ولا من في حكمهم، وتدفع نقداً أو متاعاً كثياب ونحوه، وقد كانت الجزية المعتادة ديناراً عن كل شخص في السنة أو ١٣ درهماً، ثم صار هذا بَعدُ الحدَّ الأدنى، فكانوا يأخذون دينارين أو ٢٤ درهماً، وأحياناً على الغني أربعة دنانير، وإن لم يدفع الجزية جوزي بالحبس»[٣].

٢ ـ عمر بن الخطاب والذميون:

لم يسمح عمر بن الخطاب بابقاء دين في الجزيرة الا الإسلام. فتشدد في الأمور الدينية بالرغم من عهود الامان السالفة التي أمر بها النبي لأهل الذمة. واضطر يهود خيبر

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٦ (حاشية).

مثلا الى الجلاء عنها عام ٦٣٥ ـ ٦٣٦م، ملتجئين الى أريحا وغيرها. وكذلك نصارى نجران والعراق بعد أن أعفوا من الجزية. وهذا الأمر تمّ لهدف سياسي. فقد اراد عمر توحيد العرب المسلمين في أمة واحدة، لكي يتمكن من تأسيس امبراطورية دينية ـ عربية موحدة، حربية، دينها واحد. كما منع المسلمين من الزواج بغيرهم من الشعوب. وكان هذا نوعاً من الاستقراطية العسكرية، على حد تعبير تاريخ العرب. بل وصل عمر الى أبعد من ذلك، بحيث لم يرعَ ما لم يكن عربياً مسلماً في الدولة العربية. من هنا نفهم لِمَ لمْ يمتلك المسلمون العرب في عصره أراضي زراعية خارج شبه الجزيرة. وعندما كان بلد يُفتح، كان العرب الفاتحون يعسكرون فيه، وتعمل الشعوب المغلوبة من سكان الأمصار بالزراعة فيه والاعتناء بالأرض. وهذه نزعة بدوية عريقة، لأن البدو كان يكرهون العمل في الارض ويحتقرونه، كما كانوا يحتقرون كل الاعمال اليدوية. نستنتج :

١ ً ـ أن الدين الاسلامي، بناء على مفهوم عمر ورؤياه، لم يعتبر المدين بسواه من مستوى العربي المسلم. وهذا يعني أن العربي الذي اتخذ الاسلام ديناً وحده، له المقام الأول في الحياة لأنه اختاره الله.

٢ ً ـ أن الدين الاسلامي هو «الصراط المستقيم»

(الفاتحة/٥). والشعب المسلم هو شعب الله المختار، ارسل له محمداً خاتمة للأنبياء.

٣ً ـ الدين الاسلامي هو الذي يُظهر لنا صفاء الانسان التام؛ فمن لم يُسلِم لم يَسْلم، بل عليه، فيما بعد، أن يترك ما يؤمن به ويلتجئ الى ظل الاسلام، والا بقي دون العربي الحقيقي، وامتُنع الاختلاط به.

انطلاقاً من هذه النقاط الثلاث عومل أهل الذمة على أنهم دون مستوى العرب المسلمين. وربما أراد النبي أن يصل، في وقت من الاوقات، الى توحيد جزيرة العرب وجعلها عربية ـ اسلامية محضاً. الا أن ثمة عهداً لأهل الكتاب، كما ذكرنا، لأنهم لم يحاربوه في نشر دينه، ولأن تعاليمهم الدينية التقت في أهدافها مع تعاليمه، ولذا وهبهم الأمان، فلا يُكلَّفون ما هو فوق طاقاتهم، ويُدافع عنهم.

أما بالنسبة الى الضرائب المترتبة عليهم فقد ذكرنا الجزية التي كانوا يدفعون. فاذا أسلم الذمي، توقف فوراً عن دفعها، وهذا ما دفع عدداً كبيراً من الكتابيين الى اعتناق الاسلام. وثمة ايضاً، الخراج، وهو لا مفرّ منه، سواء أسلم المرء أم لا، لأنه ضريبة على الأرض وهي حق للمسلمين. أما إذا استولى مسلم على أرض، فلا يدفع عليها جزية، لأن هذه الأرض لم يَفِها الله، بل استباحها الانسان، ولذا أعفيت من الخراج: إنها أرض مغنومة. فان سقطت الجزية بإسلام

أحد، توجّب عليه دفع الزكاة، وهى ضريبة دينية، لا بد منها. وهنا نلاحظ أن الاسلام لم يأمر بالضرائب إلا من أجل تنظيم الدولة وتمويلها.

أما البلاد المُفْتَتَحة، فإن الفاتح كان يفرض عليها الضرائب وفقاً لطبيعة تلك البلاد ووفقاً للأصول التي كانت مرعية فيها. ولا يختلف الأمر إن كانت هذه البلاد قد سلّمت صلحاً أو حرباً. والفرق بين الجزية والخراج لم يكن معروفاً حتى أيام عمر، لأن القرآن لم يورد لفظة «جزية». بمعنى خاص إلا في سورة التوبة: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.» (آية ٢٩). ودستور عمر كان إشتراكياً-عروبوياً، اذا صحَّ التعبير، من هنا نفهم سبب تشدده مع أهل الذمة، حتى جاء عهد عثمان بن عفان، فتغيرت حالهم، وكان أكثر تساهلاً وتسامحاً.

٣ ـ الذميون وعصر ما بعد عمر بن عبد العزيز:

قلنا إن معاملة أهل الذمة انحصرت في أصحاب الديانات التوحيدية، بيد أنها امتدت بعدئذ، لتشمل المجوس، ومن عبد النار، وأتباع زرادشت، والوثنيين من سكان حرّان والبربر. ولم يؤمن الفرس وأتباع زرادشت كثيرا، ولا البربر ممن سكنوا شمال أفريقية، إلا أنهم حظوا بالحقوق نفسها التي

وهب الاسلام أهل الذمة إياها فكان عليهم أن يختاروا الاسلام أو السيف. أما أهل الكتاب فاختاروا بين السيف والاسلام والجزية. وفي الأماكن الحصينة كجبال لبنان كان للنصارى وسواهم نفوذ، بحيث أنهم لم يخضعوا للاسلام، بل دعموا المسلمين إبان حكم بني أمية. ومن المعلوم أن جبل لبنان هو في قلب الامبراطورية الاسلامية، ولم يكن مديناً بدينها، ولا سيطر عليه حكامها ـ وهو أمر على جانب كبير من الأهمية. فكان الشيعة والنصارى ثم الدرزية (الموحدون) فيما بعد يلجأون إليه هرباً من دفع الجزية، وبغية ممارسة شعائرهم وطقوسهم الدينية وفق ما يرتأون، ما جعل جبال لبنان ملاذاً لمن يبغي الحرية الدينية. ولكن النصارى، في الحقبة الأموية كانوا يعاملون بالحسنى، حتى إن بعض كبار رجال البلاط الأموي كانوا نصارى ـ نذكر منهم الأخطل التغلبي شاعر بني أمية في بلاط عبد الملك بن مروان. كما أن معاوية نفسه تزوج من مسيحية، هي ميسون، أنجبت له يزيداً، وكانت من قبيلة كلب. وكان شاعره وطبيبه وأمير مال دولته نصارى أيضاً. ولا ننسى أيضاً التحالف الذي قام بين بني أمية وقبيلة تغلب النصرانية. وإذا ما استثنينا بعض الحوادث كقتل الوليد الأول زعيم بني تغلب النصراني لأنه رفض أن يُسلم، وجدنا أن النصارى عوملوا بالحسنى. وفي مصر، ثار الأقباط على حكامهم المسلمين غير مرة، لأنهم رفضوا الخضوع التام، إلى

أن جاء الخليفة العباسي المأمون عام ٨١٣م. فقضى على جميع ثوراتهم، وأخضعهم إخضاعاً على أننا نستثني عهداً واحداً من عهود الحكام الأمويين كان مختلفاً في التعامل مع الذميين، هو عهد عمر بن عبد العزيز.

٤ - الذميون وعمر بن عبد العزيز:

وضع هذا الخليفة قيوداً صعبة على رعاياه غير المسلمين، وبخاصة النصارى. هذه القيود نُسبت خطأً إلى عمر بن الخطاب. فقد حَظَّر وصول أهل الذمة إلى مراكز معينة حساسة في الدولة، وحصرها بالمسلمين، للحفاظ على الطابع الاسلامي، ومنعهم من لبس العمامة التي يلبسها المسلمون، وأمرهم بأن يتنحوا جانباً إذا مر مسلم أمامهم في الطريق، جازّين مقادم رؤوسهم له. وقد حَظَّر عليهم التشبُّه بالمسلمين في اللباس، فكانت لهم ملابس خاصة. ومنع عليهم أن يرفعوا كنيسة أو ديراً أو صومعة، أو أن تُسمع أصواتهم في الصلاة. حتى إنه ذهب إلى أبعد من ذلك؛ فإذا ما قتل مسلم نصرانياً فعقوبته دية معيّنة. ولا تُسمع شهادة نصراني على مسلم أمام القضاء. والظاهر أن اليهود أيضاً سرت عليهم بعض نصوص هذا القانون وحرموا حق التوظيف. نستنتج من هذا:

ـ أن الذميين فقدوا جزءاً عظيماً من حرياتهم في ذلك العهد.

ـ أن موقف عمر بن العزيز منهم يذكرنا بموقف عمر بن الخطاب.

ـ أن لهذا الموقف المتشدد أبعاداً سياسية، وهي دفع أهل الذمة إلى الاسلام، فهو دين كبار رجال الدولة وسواهم، يعتز به من ينتسب إليه.

لكن هذه الحال لم تدم طويلا. فبعد عمر بن عبد العزيز استعاد الذميون حرياتهم بشكل عظيم، بل زادت حقوقهم في العصر العباسي.

٥ ـ الذميون والعصرين العباسيين الأول والثاني:

أ ـ انتقال الخلافة إلى بني العباس ودخول الديانات الفارسية في حكم أهل الذمة:

لم يُعمل طويلاً بالقوانين الصارمة التي أُخذ بها في عهد عمر بن عبد العزيز. فقد بنى خالد بن عبد الله القسري، عامل هشام على العراق كنيسة للنصارى يتعبدون فيها، ومنح النصارى واليهود حق بناء المعابد لهم، ووصل أتباع زرادشت إلى مناصب في الدولة. وعندما انتقلت الخلافة إلى العباسيين تغيرت الحال مع أهل الذمة، ودخلت أديان جديدة في

حكمهم، لتنال معاملة خاصة. ومن المعروف أن رقعة الامبراطورية العربية قد توسعت منذ النفوذ العباسي حتى أصبحت من أكبر الامبراطوريات في تاريخ الانسان. فكان لاختلاط الشعوب أثر مهم في السياسة العربية المتبعة. وهذا الأمر ترك بدوره أثرًا في معاملة أهل الذمة وفي تعداد الذميين.

سبق إن قلنا إنّ العرب، في الأمصار التي افتتحوها، سمحوا للناس بالعمل في زراعة الأرض المفتَتَحة؛ كذلك سمحوا لهم بالتكلم بلغاتهم الأصلية، على الرغم من أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية. وأصبح أتباع زرادشت، وعبدة النار (وهم فرس)، وصابئة حران يعاملون معاملة أهل الكتاب، كما لو كان لهم على الاسلام ذمة؛ فنالوا التساهل والعطف كما ناله النصارى واليهود من قبل. وسُمِح لهم بالبقاء في مناطقهم الريفية وممارسة عاداتهم الخاصة وتقاليدهم وشعائرهم، وأبقيَ على لغاتهم (كالآرامية والسريانية والفارسية والقبطية...). فإن أسلم بعضهم انتقل إلى المدن. ولكن ما حُظِيَ به أهل الذمة في هذا العصر من عطف زائد هو أنهم تقلّدوا مناصب كبيرة في الدولة (دوائر المال، الكتابة...)، ولم يكن هذا جائزاً في أيام عمر بن عبد العزيز. وقد مثل الحسد دوره في نفوس بعض المسلمين، حتى حاولوا أن يقيدوهم بشرائع جديدة ليقلّصوا حرياتهم.

لكن ضروب تشريعاتهم لم تنفذ، بل بقيت حبراً على ورق.

ب ـ الإستثناءات التي طرأت على حريات أهل الذمة:

كان هارون الرشيد أول خليفة أعاد أحكام عمر بن عبد العزيز على أهل الذمة، فضيّق عليهم، وأمر «سنة ٨٠٧م. بهدم الكنائس في الثغور وما بني منها في الأمصار بعد الفتح الاسلامي. ثم أوصى بأخذ أهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم(٤)». وقد بلغت القيود التي فرضت على أهل الذمة أشدها في خلافة المتوكل، إذ إنه «أمر النصارى واليهود سنة ٨٥٠ م. و ٨٥٤ م. بجعل صور شياطين من خشب على أبواب دورهم وبتسوية قبورهم مع الأرض، وأن تكون أرديتهم من اللون الأصفر، وأن يجعلوا خرقيتن مختلفتي الصبغ على الثوب تلقاء الصدر ومن وراء الظهر، وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالف لونهما لون الثوب الظاهر. ولم يُرَخّص لهم إلا بركوب البغال والحمير واتخاذ السروج من الخشب، وبتصيير كرتين على مؤخرة السروج(٥)». وسمّي لباس الذمي «الأرقط». ولم تقبل شهادة ذمي على مسلم لأن الحكام آنذاك أخذوا بقول

---

(٤) فيليب حتي وإدوار جرجي وجبرائيل جبور، تاريخ العرب (مطول)، دار الكشاف، ط ٤، ١٩٦٥، ٤٣٣/٢.

الآية: «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه في الأرض جميعاً». (البقرة/١٦).

لم يكن لليهودي والنصراني الحق، إذاً، في الشهادة على مسلم، لأن المسلمين اعتبروهم محرّفين لكتاب الله. وآخر مستخلف لجأ إلى الشدة في معاملة الذميين هو الحاكم بأمره الفاطمي الذي هدم كنيسة القيامة ليبني مكانها مسجداً.

ج ـ معاملة الخلفاء العباسيين أهل الذمة:

بالرغم من كل ما ذكرنا، تمتع الذميون بحرية وافرة في العصر العباسي. فقامت مثلاً، في بلاط الخليفة المهدي، محاورات دينية كثيرة للنساطرة دفاعاً عن دينهم، لايزال بعض نصوصها محفوظاً حتى اليوم. كما جرت مناقشة سنة ٨١٩م. في بلاط المأمون وأمامه دارها الفيلسوف الكندي، وفيها يقابل بين محاسن الاسلام والنصرانية. ووضع علي الطبري كتاب الدين والدولة وهو دفاع شبه رسمي عن الدين الاسلامي بمباركة المتوكل وبمساعدته. وترجم إلى الإنكليزية the book of Religion and Empire, Manchester 1922— وظهرت

(٥) الموضع نفسه.

ترجمات كثيرة للتوراة إلى العربية. وذكر الطبري أن عبد الله بن العاص قرأ سفر دانيال.

هذه الترجمات أثرت كثيراً في علماء الاسلام ودفعتهم إلى مناقشة الديانة المسيحية، «حتى إن الجاحظ انبرى لدحض آراء الدين المسيحي[٦]». وكان ثمة وزراء نصارى في القسم الثاني من القرن التاسع، احترمهم القضاة، نذكر منهم عبدون بن صاعد. «وكان للمتقي وزير نصراني كما كان لأحد بني بويه وزير آخر هو نصر بن هرون[٧]». والمعتضد جعل رئيساً نصرانياً لجيش المسلمين. ونُشرت براءة الحماية النساطرة، منحها المكتفي سنة ١١٣٨ م. وكان معظم الرعايا النصارى في الدولة العباسية ينتمون إما إلى الكنيسة اليعقوبية، وإما إلى الكنيسة النسطورية. كما نال البطريرك النصراني حق السكنى في بغداد لأن أكثر رعاياه في العراق؛ وهذا البطريرك معروف للكاثوليك. فقد فشل اليعاقبة في الوصول إلى مثل هذا المركز. وكانت للكاثوليك سلطة روحية على سبع أبرشيات، منها أبرشية البصرة والموصل؛ وفي كل أبرشية ثلاثة أساقفة، أو أسقفان، ومطران ومن يُنْتَخَب

(٦) المرجع نفسه، ٤٣٥/٢.
(٧) الموضع نفسه.

لينتصب عرش الكثلكة يصبح الزعيم الروحي الوحيد للنصارى جميعهم في كل الامبرطورية الاسلامية. واتهم اليعاقبة بأنهم كانوا يشابهون الروم، وهم «دير في بغداد وأبرشية في تكريت غير بعيدة عن العاصمة(٨)». وقد اعتنق أقباط مصر مذهب اليعاقبة وعقائدهم، واعترفت كنيسة النوبة اليعقوبية برئاسة بطريرك الإسكندرية. واعتنق النصرانية العديد من البربر ممن تاخم مصر، ولكن ظلت لهم بعض العقائد الخاصة. كانت النصرانية قوية جداً في ظل الخلافة العباسية، بل كانت أقوى مما أمكن التصور، حتى إنها وصلت إلى الهند والصين (يروي ابن النديم عن اجتماعه براهب نجراني كاثوليكي كان مبشراً في الصين(٩)). ويروي أن العمود الحجري المشهور في سيان ـ فو بالصين الذي نُصب سنة ٧٨١ م. هو تذكار لجهود سبعة وستون مبشراً نسطورياً وما انضمام الكنيسة الهندية وأتباع القديس توما في مالابار إلى بطريركية بغداد إلا دليل على حيوية الكنيسة السريانية الشرقية، وغيرتها الدينية في التبشير، حين كانت تعيش في كنف المسلمين. والأحرف الأبجدية المغولية والمنشاوية مشتقة من الأبجدية السريانية التي راجت بوساطة

(٨) المرجع نفسه، ٢/٤٣٦.
(٩) ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، ١٩٧٨، ص ٤٩٠.

مبشرين نساطرة. كل هذا يظهر أن النصرانية وأعمالها كانت شديدة الرواج في ظل الإمبراطورية العباسية، وأن الذميين النصارى من نساطرة ويعاقبة تمتعوا بحرية كبيرة.

أما اليهود، فكانت حريتهم أوسع من حرية النصارى، لأنهم لم يشكلوا خطراً على العباسيين، فهم قِلّة. وكان القرآن قد هاجمهم: «لُعِنَ الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون». (المائدة/٧٧).

وأكثر الكتبة والأطباء نصارى، وأكثر أصحاب البنوك وتجار العملة يهود في سورية. وكانت لليهود مراكز مهمة في الدولة عند استخلاف المعتضد. وقد وصلت حدود حريتهم إلى حد إنشاء مستعمرة كبيرة لهم في بغداد وصفها ابن يمين التطيلي، وفيها «عشر مدارس للحاخاميين وثلاثة وعشرون كنيساً، منها واحد رئيس مزدان بالرخام، مخطط ومجمل بالذهب والفضة[١٠]». وكان رئيس اليهود ممتناً من معاملة المسلمين له، ولذا أطاعهم اليهود في بغداد. ذلك أنّ رئيس الحاخاميين كانت سلطته شاملة على جميع أبناء رعيته. وإذا ما خرج الحاخام للقاء الخليفة، ارتدى الثياب الحريرية المطرزة بالجواهر، وسار وإياه موكب خاص، وساعٍ يصيح بأعلى صوته أمامه: افسحوا درباً لسيدنا ابن داود.

(١٠) فيليب حتي، تاريخ العرب، ٢/٤٣٧.

وإذا نظرنا إلى معاملة المسلمين لليهود والنصارى بعامة ـ ما خلا عهود عمر بن عبد العزيز والرشيد والمتوكل ـ، أي ابتداء من أوائل العام ٩٠٠ م. رأينا أنهم تمتعوا بإمتيازات كبيرة وحريات واسعة خوّلتهم ممارسة دينهم وعقائدهم بدون ضغط، ما أدى إلى إعطائهم كياناً خاصاً في الدولة الاسلامية، وإشعارهم بأنهم خلايا فاعلة في النسيج المركب لهذه الدولة، ولا سيما على صعيدي الفلسفة والعلوم. فقد كان في الدولة الاسلامية مترجمون مسيحيون على جانب كبير من الأهمية نقلوا الفلسفة اليونانية إلى العربية كفلسفة أفلاطون وارسطو وفيثاغوراس وسواهم، نذكر منها اسحق بن حنين (ولد عام ٩١٠ م.) وحنين بن اسحق (٨٠٩-٨٧٣م.) وهو نسطوري ملقّب بشيخ المترجمين. ومن ترجماته كتاب الترياق وكتاب في العين وكتاب في النبض وغيره. وقسطا بن لوقا البعلبكي (٨٢٠م. -٩١٢م.) وهو من بعلبك، ترجم كتاب الروائح وعِلَلَها، والمدخل إلى علم الهندسة، وكتاب الفرق بين النفس والروح، وغيرها. وثابت بن قرة (٨٢٦م. -٩٠١م.) ترجم باختصار المنطق، وتسهيل المجسطي لبطليموس، والكرة المتحركة لأوتولوكوس، والكرة والأسطوانة لارخميدس، وسواها. ويحيى بن عدي المنطقي (٨٩٦م. - ٩٧٤م.) ترجم لأرسطو كتب النفس، والآثار العلوية، وغيرها.

أدّت الحرية التي عرفها أهل الذمة، إذاً، إلى جعلهم نوًى فعّالة مهمة في المجتمع العربي. أما الصابئون فأكثرهم

مندبون، وهم طائفة يهودية ـ نصرانية، سموهم، خطأ، نصارى القديس يوحنا لأنهم دعوا أنفسهم نصارى إدْيحيا. آمنوا بالمعمودية، ومارسوها حتى قبل الزواج، ويُظَنّ أن موطنهم الأصلي هو فلسطين. ذُكر الصابئون في القرآن مرتين ـ وقد أشرنا إلى ذلك ـ وكانت لهم آمال أهل الكتاب. وثمة طائفة منهم في حرّان، ولكنهم ليسوا حقيقة صابئين، بل وثنيون إلهيون قالوا بالثنوية الإلهية؛ إلا إنهم سموا أنفسهم صابئة خوفاً من الاسلام، فلازمهم هذا الاسم، ووهبهم الاسلام الأمان نظراً لبعض نوابغهم، ومنهم ثابت بن قرة. ويقال إن جابر بن حيان كان منهم أيضاً، لكنه أسلم. الصابئة، إذاً، قسمان: واحد ديانته قريبة من النصرانية ـ وهم من أهل الكتاب ـ، وآخر وثني ادّعى هذه الديانة، إلا أنه مارس العوائد الوثنية، وكان بعيداً عن معطيات الديانة التوحيدية ـ وهم سكان حرّان ـ.

أما المجوس وسواهم من الثنوية فلم ترد إشارة إليهم في القرآن إلا مرة واحدة: «ألم ترَ أن الله يسجد له من في السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حُق عليهم العذاب ومن يُهِنِ الله فما له من مكرّم إن الله يفعل ما يشاء». (الحج/١٧). هؤلاء جعلهم المسلمون فئة من أهل الذمة في العصر العباسي، وعوملوا كأنهم صابئة. ولهذا دوافع سياسية. فالعباسيون أرادوا توسيع نطاق الذمة ليجمعوا أكبر عدد ممكن

من الأنصار، وليبسطوا ذمة على سكان إيران، فألحقوا هؤلاء بالصابئة[11]. فالديانة الزرادشتية راجت في الهند، وبعض أنحاء العراق، ومناطق شرقي فارس. ومن المجوس من اعتنق الاسلام في عهد المأمون، ولمع في الأدب مثل روزبه بن دازويه (ابن المقفع). والتبس على المسلمين أمر المانويين، فعاملوهم كأهل الذمة. والمانوية ـ نسبة إلى ماني ـ ديانة بين المجوسية والنصرانية، يقول أصحابها بنبوة المسيح، وينكرون نبوة موسى[12]. ثم ضيق المسلمون الخناق على المانويين إبان حكم الهادي والمهدي، عندما صارت تعاليم هذه الديانة تشكل خطراً على الدولة، وسموهم زنادقة. ولفظة زنديق مشتقة من زنديك الفهلوية، وتعني كل من أظهر عقائد الفرس، ولا سيما المانوية. ثم صارت تعني كل من أنكر الألوهة[13]. وكان الزنديق ممقوتاً في الدولة العباسية ومضطهداً.

«ففي سنة ٩٨٠م. صلب المهدي في حلب جماعة من الذين أسروا المانوية. وفي السنتين الأخيرتين من عهده جدّ في طلبهم والبحث عنهم في الآفاق، وجرّد فيهم السيف. وقد

---

(١١) راجع المجوسية وطوائفها في: ابن النديم، الفهرست، ص ٤٨٢ وما بعدها. و: الشهرستاني، الملك والنحل، دار المعرفة، ١٩٨٤، ١/ ٢٣٣ وما بعدها.

(١٢) الشهر ستاني، الملك والنحل، ١/٢٤٤.

(١٣) أحمد أمين، فجر الاسلام، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩.

نسج الهادي من بعده على المنوال نفسه، فاشتدت نقمته على الزنادقة. ثم جاء الرشيد فولّى أمرهم موظفاً خاصاً قلده حق قتل القائلين بالثنوية. ولكن الكثيرين من أتباع ماني ومن أصحاب المزدكية الإشتراكية نجوا بعد ذلك الإضطهاد(١٤)».

ولكن المسلمين غضوا النظر عن الفئات القليلة الجوّالة في شمال أفريقية وأواسط آسية، على الرغم من أن القرآن يقول بالقضاء على المشركين.

د ـ حالة أهل الذمة في الأندلس:

عندما وصل العرب إلى الأندلس وافتتحوها، كان القوط النصارى يشكلون أكثر السكان فيها. ونال الفتح الاسلامي مأربه منها، وأدخل النصارى واليهود في حكم أهل الذمة. إلا أن حالهم في الأندلس ما اختلفت كثيراً عنها في الشرق، والخطة التي سلكها العرب الفاتحون في التعامل مع رعاياهم كانت قريبة جداً من تلك التي عرفت في المشرق. فالنصارى واليهود وحدهم كانوا أهل الذمة. «والجزية التي دفعت كانت تتراوح بين اثني عشر وأربعة وعشرين وثمانية وأربعين درهماً في السنة، وذلك بالنسبة إلى مقدرة المكلف المالية. وقد أعفي من الجزية النساء والأحداث والشيوخ والمعوزين ومثلهم

(١٤) فيليب حتي، تاريخ العرب، ٤٤٠/٢.

الرهبان والمصابون بالأمراض المزمنة[١٥]». ودفعوا الخراج، أيضاً، أي الضريبة التي تدفع عن الأرض، وتختلف عن الضريبة الأولى، في أنها لا تسقط وإن أسلم الذمي. وفي الأندلس صادروا كل أراضي الكنيسة وأملاكها، وكل ما استلب من أراضٍ، وكل ما استملك الذين فروا من البلاد إبان الفتح، وصارت كلها ملك المسلمين. ولكن، سمح للفلاح المستعبد بأن يعمل في أرضه ـ لأن العرب اهتموا بالزراعة ـ شرط أن يدفع أربعة أخماس المحاصيل لصاحب الأرض المسلم، ويبقي الخمس لنفسه. أما الدولة فقد استملكت خمس الأراضي، واجبرت الفلاحين على دفع ثلث المحاصيل فقط، واقتطع قسم من أراضي الدولة للعرب الذين استخدموا في قمع الثورات مكافأة لهم. من هنا نلاحظ أن الجزية التي فرضت على الذميين لم تختلف كثيراً عنها في الشرق منذ عمر بن الخطاب.

وكان النصارى أحراراً في ممارسة طقوسهم الدينية وعقائدهم كما يشاءون، ويخضعون لرؤسائهم الروحيين، إلا إذا مست هذه القضية المسلمين. وهذا الأمر كان متّبعاً في الشرق أيضاً. ولم يضايق الفتح العربي الأندلسيين، ولم يجحف بحقهم، بل كان مفيداً لهم في بعض النواحي. فقد قضى على الطبقة النبيلة وعلى سلطة الإكليروس التي استبدت

(١٥) المرجع نفسه، ٢/٦٠٧.

بحقوق الشعب، واستأثرت بالكثير[١٦]؛ فكان أن ارتقت أحوال العمال، وأصبح للملاك النصارى حقوق لم تكن لديهم من قبل، خلال الحكم القوطي.

ولم يكن في الأندلس من مجوس.

٦ ـ علاقة أهل الذمة (ولا سيما النصارى) بالاسلام بعد العصر العباسي الثاني:

انطلقنا في بحثنا من تقسيم العصر العباسي إلى أربعة أطوار:

١ ـ الطور الأول: دام نحو قرن من الزمن. كانت قوة العرب خلاله في ذروتها، إذ شملت سلطة الخليفة أنحاء الأمبراطورية العربية كلها تقريباً.

٢ ـ الطور الثاني: قويت فيه سلطة الأتراك في البلاط العباسي، حتى تدخلوا في شؤون الخلافة، ووقفوا مع فريق ضد آخر، فاغتالوا المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان، بناء على طلب ابنه المنتصر. وضعفت سلطة الخليفة، حتى صار في النهاية العوبة بين يديهم وفريسة لمؤامراتهم. دام الطور نحواً من قرن.

٣ ـ الطورالثالث: قويت فيه سلطة الفرس من جديد

---

(١٦) كان الاكليروس يحتكرون الأراضي، ويمارسون ضغوطاً شديدة على اليهود. لهذا وقف اليهود مع الفاتحين عندما دخل العرب إلى الأندلس، فجعلهم الفاتحون حماة للمدن.

(البويهيين) إلى جانب سلطة الأتراك، وراحت الإمبراطورية تتفسخ وتنقسم إلى دويلات، منها الدولة الحمدانية، والدولة البويهية والدولة الفاطمية. . . وانحصرت سلطة الخليفة ببغداد. دام هذا الطور نحواً من قرن.

٤ ـ الطور الرابع: وهو طور التفكك والإنحلال. لم يعد الخليفة إلا صورة. ثم أخذت الدويلات تسقط شيئاً فشيئاً بيد الصليبيين فالمغول (بقيادة هولاكو)، وأحرقت بغداد ونهبت واستبيحت. ودام هذا الطور نحواً من قرنين (حتى سنة ١٢٥٨م.).

١ ـ علاقة الاسلام بالنصارى بعد الطور الثاني كانت علاقة تنافس وعداء في الشرق والغرب معاً. ففي الشرق بدأت الحروب الصليبية منذ عهد السلاجقة. وكان همّ المسيحيين استعادة الأماكن المقدسة من المسلمين؛ فوجهوا حملات سبعاً، وحملة أولى شعبية من خمسة عشر ألف رجل اصطدموا بسلاجقة الروم فأُبيدوا، ولم يعد منهم حيّاً إلا ثلاثة آلاف. فجيّشوا حملة ثانية كانت الصليبية الأولى تجمعت في بيزنطية، ومنها انطلقت إلى بلاد الشام بأمر من البابا اوربانوس الثاني. ثم تلتها حملات أخرى ومعارك كثيرة بين المسلمين والمسيحين، وتوقفت عند الحملة السابعة؛ وتمّ احتلال الأماكن المقدسة، وعقد صلح بين الصليبيين وصلاح

الدين الأيوبي عقده ريكاردو قلب الأسد. ومن أشهر القواد الصليبيين غودفروا دو بويون. قصد الأجانب الأراضي المقدسة وفي رأسهم فكرة راسخة، هي أن المسلمين وثنيون يعبدون محمداً[١٧]!! وأنه هو المسيح الدّجال[١٨]!!! وترك الغزاة أثراً سيئاً في نفوس المسلمين. ولكن، مع الزمن قامت علاقات ودية وحسن جوار بين الفريقين، فتغيرت الحال، وأصبح المسلمون يعملون في الزراعة عند بعض المسيحيين. وما يلفت الإنتباه أن النصارى الغربيين ارتدوا اللباس الشرقي، لأنه أكثر إراحة، واختلط الشعبان، ونشأ نسل جديد أوروبي - عربي، حتى إنهم كانوا في خصوماتهم الخاصة يرحبون بمساعدة المسلمين أعدائهم. وكذلك الأمر مع المسلمين. وظلت الخصومات قائمة بينهما، حتّى أجلي الصليبيون نهائياً عن الأراضي العربية.

٢ - أما في الغرب - أي في الأندلس - فقد بدأ المسلمون يضعفون شيئاً فشيئاً مع ملوك الطوائف بعد سقوط الدولة الأموية هناك. وقسمت الإمارة إلى دويلات، نذكر منها دولة بني العباد، ودولة المرابطين، ودولة الموحدين، ودولة بني نصر التي تحالفت مع النصارى، وسواها... وعندما أحس

(١٧) ريتشارد سوذرن، صورة الاسلام في أوروبا في العصور الوسطى، تعريب: رضوان السيد، معهد الإنماء القومي، ط ١، ١٩٨٤، ص ٦٨.

(١٨) المرجع نفسه، ص ٦١.

السكـان بضعف العـرب وانشقـاقهم، وبكـثرة نـزاعـاتهم الداخلية، بدأت الثورات عليهم، حتى أفلحت في القضاء على الحكم العربي ـ البربري هناك.

واضطهد المسلمون بعد ذلك، فحاول الكردينال زيمنس دو سيسنروس Xinès de Cisneros أن يحمل المسلمين على التنصُّر. ثم طلب إحراق كتب الفقه الاسـلامي وشرائعه، ودعي كل مسلم لم يهجر غزناطة بعد سقوطها بالمورسكـو. وتنصّر الكثيرون هرباً من الإضطهاد، دونما إيمان بالمسيحية. وعام ١٥٠١ م. أمر كل مسلم في ليون وقشتالة أن يهجر أو يتنصّر. وعـام ١٥٢٦ م. عُمّم هـذا الحكم عـلى مسلمي الأراغون. وعام ١٥٥٦ م. «سنّ فيليب الثاني تشريعاً بأمر البقية الباقية من المسلمين بترك لغتهم وعباداتهم وأنـظمتهم وعاداتهم. وأمر أيضاً بهدم حمامات الإسبانيين، باعتبار أنها من الـتراث الاسـلامي العـربي. فتعـالت الشكـوى بـين المسلمين، وسرت الحمية في عروق بعضهم، فثاروا للمـرة الثانية: أولاً في غزناطة ثم في ما جاورها من جبال. ولكنهم لم يلبثـوا أن أخضعـوا وأخمـدت شـوكتهم[١٩]». ثم نفي المسلمون عام ١٦٠٩ بأمر من فيليب الثـالث. ومن هؤلاء تشكّلت معظم قراصنة البحر المراكشيين.

٣ ـ نستخلص، بعد هذا، أن أهل الذمة النصارى بصورة

---

(١٩) فيليب حتي، تاريخ العرب، ٢/٦٥٩.

خاصة كانوا يشكلون غالبية الذميين، ثاروا على الاسلام غير مرة، وشكلوا سبباً من أسباب سقوط الإمبراطورية الاسلامية.

٧ ـ السياسة والدين وموقفهما من أهل الذمة:

لم يكن الاسلام يتعارض والسياسة. وبالعودة إلى الحقبة النبوية ـ غداة بدء انتشار الدعوة ـ نرى أن النبي لم يكن قوياً بعد، ولا رسخت العقائد التي بشّر بها في نفوس العديد من الناس. لذلك، كانت لهجة الآيات التي تنزل عليه بعيدة عن الشدة، خلا ما يتعلق منها بأمور الدين. فلم يتعرض، عندما كان بمكة، للأمور التشريعية والقضائية والإجتماعية إلا لِماماً. وعندما قوي، وكثر المسلمون، تغيرت لهجة الآيات المنزلة، وراحت تقوى، ويبدو فيها النهي، وباتت جماعة المسلمين بحاجة إلى شرائع جديدة لمجتمعها الجديد، فنزل تحريم الخمر شيئاً فشيئاً، ونهي عن أكل لحم الخنزير، وشُرِّع مفهوم الارث، وما إلى ذلك. ثم صارت الشرائع السياسية المستمدة من الدعوة الاسلامية هي السائدة، حتى نحا بالمسلمين منحى تأسيس أمة عظيمة، لها قدم راسخة في العالم.

ومن هنا نلاحظ ارتباط الاسلام بأهل الذمة. فهؤلاء اضطروا إلى الخضوع لقوة الفتح الاسلامي ومدّه، ولكنهم تفاعلوا مع البنية الإجتماعية والعقائدية التي سادت في ظل الأمة الاسلامية. ولم يظهر من هذا التفاعل إلا لمح قليلة جداً

في نهاية الحقبة النبوية، لأن اختلاط الشعوب كان محدوداً؛ وعندما كثر الإختلاط بالفرس والروم، ثم بالبربر، بدا ذلك جَليًّا.

وقد أثر الذميون في اللغة والفكر العربيين. فظهرت مثلاً الحركة الشعوبية بوجهها الفارسي المعادي للعرب، وكانت لها أربعة أهداف:

١ً - الأول سياسي طموحه انتزاع الحكم من أيدي المسلمين العرب.

٢ً - والثاني اجتماعي، طموحه ضرب عادات العرب واحلال العادات الفارسية محلها.

٣ً - والثالث ديني، طموحه ضرب القرآن والاسلام، والدعوة إلى الديانات الفارسية (المجوسية).

٤ً - والرابع أدبي، طموحه تهديم أدب العرب وتسفيهه وانكار جماليته.

كان اختلاط الشعوب، إذاً، أحد أهم أسباب انتشار الذميين. وهذا الأمر جعلهم يتفاعلون كثيراً مع المحيط المسلم، فالشعوبيون، مثلاً، لكي ينسفوا آراء العرب كان عليهم أن يعرفوها، ما جعل انتشار المعارف العربية أوسع؛ ثم إنهم ردوا على العرب بلغتهم، فكانت التآليف حتى في الأمصار الأجنبية عربية اللغة لكي تنتشر. وعندما ردّ العرب عليهم، طرحوا ثقافتهم في ميدان المعركة، وحاجحوهم دفاعاً

عن العروبة، فكانت تآليف كثيرة على جانب كبير من الأهمية. هكذا، ساعدت الحرب المعنوية التي دارت بين العرب والذميين الاسلام على الرسوخ والإنتشار، وعلى توسيع آفاق المعرفة - ولا سيما عندما نُقلَت الفلسفات اليونانية إلى العربية (وعلى رأسها منطق أرسطو) لدعم علم الكلام. وقد كانت الحرية الدينية كبيرة في العصر العباسي، كما ذكرنا، وصلت إلى درجة المناظرات في بلاط الخلافة. بل إن بعضهم، كأبي العلاء المعرّي، شك في صحة الأديان نفسها:

فـي الـلاّذِقـيَّـةِ ضَـجَّـةٌ
مَـا بَـيْـنَ أَحْـمَـدَ والـمـسـيـحْ
كُـلٌّ يُـنـادي دينَـهُ،
يـا لـيت شِـعْـري مـا الـصـحـيـحْ؟

وعندما راح النبي محمد ينشر رسالته الدينية، جذب الكثيرين إليه. ولكن، عندما بدأ الفتح، عادت الشعوب المغلوبة المسلمين لأنهم تفوقوا عليها، وملكوا زمام أمرها. ثم راح الكثيرون يسلمون، فازداد عدد المسلمين، ما قوّى السياسة الاسلامية، فتوسعت سيطرة الأمة العربية المسلمة ونفوذها، واتخذت صفة دينية، دون أن تفقد صفة العروبة. فالمسلمون، من غير العرب، والموالي، هم أيضاً مسلمون، لا حق لهم في الخلافة. وليس غريباً أن نجد هؤلاء يستقلون

بدول يحكمونها عندما بدأت الدولة العباسية تتفكك، وظهرت في الأفق السياسي أسماء تركية وفارسية حكمت مناطق شاسعة، كدولة البويهيين، والدولتين الأخشيدية والطولونية، ناهيك عن دولة السلاجقة. لكن المكسب السياسي الذي حققه العرب المسلمون هو أن القاعدة الاسلامية العربية ترسخت في جميع أنحاء العالم القديم، وصار العرب الأمة الأولى فيه، يحترمهم الكل ويهابونهم.

وكان التحول السياسي الخطير، أوائل الحقب الاسلامية، هو تحوّل نظام الخلافة من الشورى(٢٠) إلى الملكية مع معاوية. وقد دعم الأمويون موقفهم هذا بحجج كثيراً ما تكون واهية، وحصروا التأييد الإلهي بهم، واستصدروا من فقهائهم فتاوى تنص على ذلك.

والذميون مثلوا دوراً كبيراً في الإمبراطورية الاسلامية. فهم وطّدوا الاسلام وقوّوه بطريقة غير مباشرة، لأن كثرة الجدال في الشيء تنتهي إلى تقويته ونشره. وهم والوا الاسلام، وخضعوا له، واعطوا في ظله. نرى، مثلاً، في العصر العباسي انتشار حركة الترجمة والتدوين، ومعظم المترجمين سريان غير مسلمين. ومعظم من تطرق إلى النحو والصرف العربيين كانوا غير عرب: فسيبويه الذي ألف

(٢٠) ورد القرآن: «فأمرهم شورى بينهم» (الشورى/٣٨) و: «وشاورهم في الأمر» (آل عمران/١٥٩).

(الكتاب) كان فارسياً، وكذلك الخليل بن أحمد والأخفش وابن خالويه. وابن جني صاحب كتاب (الخصائص) كان بيزنطياً. زد على ذلك بعض الأعمال الإبداعية في شعر العرب.

كان التأثير الذي نتكلم عليه هائلاً، رقّى العرب كثيراً، وجعل منهم أمة على جانب كبير من التحضر. وعندما بدأت الثورات في الإمبراطورية الاسلامية كانت بعضها ثورات مسيحية ـ ناهيك عن الحروب الصليبية، وحروب القوط في الأندلس. كما أن لإنتفاضة المسيحين على المسلمين مع الحروب الصليبية أهداف سياسية في المقام الأول. فأهل الذمة أرادوا أن يستغلوا الظرف ليستقلوا، إذ رأوا في الحروب الصليبية عنصراً مساعداً على تحقيق هذا الهدف، فهي تضعف الدولة المفككة أكثر فأكثر، بحيث يمكن لإنتفاضتهم أن تنجح. فالهجمة الصليبية كان لها طابع ديني، إلا أن ثمة أبعاداً سياسية يمكن أن تستنتج منها، وهي بسط سيطرة المسيحيين على الشرق، وتقليص حجم الدولة الاسلامية. من هنا نستخلص ما يلي:

١ً ـ أن انتشار المسلمين كان سببه الأول القوة والسياسة المصبوغة بصبغة دينية.

٢ً ـ أن الدين لم يتعارض والسياسة ـ وهذا الأمر لا يزال قائماً حتى أيامنا.

٣ً - أن الـذميين مثلوا دوراً كبيـراً في تاريـخ العـرب وفي تطورهم.

٤ً - أن الذميين كان لهم دور في سقوط الإمبراطورية شرقاً وغرباً.

٨ - خلاصة عامة:

نستنتج من عرضنا أن معاملة أهل الذمة لم تكن واحدة، بل متغيرة، يمكن أن تلخص بما يلي:

أ العهد الأول: وهو عهد النبي. وكانت المعاملة ترتكـز على نصوص القرآن. عمل بها أبو بكر الصديق أيضاً على الرغم من قصر ولايته (٣ سنوات).

ب العهد الثاني: عهد عمر بن الخطاب. ضيّق هذا الخليفة الخنـاق على الـذميين فهجّـر بعض النصارى (نصـارى نجران)، وبعض اليهود والصابئة، وكان شديد الحرص عـلى الإسلام، يحـاول أن يجعل جـزيرة العـرب مهـداً للمسلمين ونواة لدارهم.

ج العهد الثالث: يمتد منذ عثمان بن عفان حتى استخلاف عمر بن عبد العزيز. تميز بحرية أوسع، ولم يُقبل فيه إلا بالنصارى واليهود والصابئة كذميين. ووصل تساهـل المسلمين معهم إلى درجة توليتهم مناصب حساسة في الدولة.

د العهد الرابع: عهد عمر بن عبد العزيز. عاد خلاله التضييق على حرية الذميين.

هـ العهد الخامس: وهو حكم العباسيين في العصرين الأول والثاني. تمتع فيه الذميون بحريات واسعة جداً، ووصلوا إلى مراكز مهمة في الدولة. إلا أن ثمة استثناءات طرأت على معاملتهم أثناء حكم الرشيد والمتوكل والحاكم بأمره. وما خلا ذلك توفرت الحرية الدينية إلى درجة المناظرات والمحاضرات الدينية التي قام النساطرة بها وأدخلت فئتان جديدتان على الذميين: المجوس والزرادشتيون.

و العهد السادس: عهد الصراع بين الذميين والمسلمين، انتهى بسقوط الإمبراطورية الاسلامية: شرقاً تحت ضربات المغول، وغرباً نتيجة ثورات سكان الأندلس النصارى.

ز العهد السابع: هو عصر الإنحطاط، امتداد للعهد السادس بشكل أوسع. بدأت خلاله المقاييس تتغير، وانحطت الحركة الفقهية، وبات مفهوم الذميين محصوراً.

ح العهد الثامن: وهو العصر الحديث منذ النهضة. وكان خاصاً جداً. نلاحظ خلاله انتشار المسلمين في العالم، وتمسكهم بالقرآن والشريعة. وسوف نأتي على تفصيله.

خلاصة القول إن الدين الاسلامي رفع حياة العرب وطورها كثيراً. إنه صراع دائم من أجل الإمتداد المطلق،

لأن الله أصبح الآن أكبر من أي وقت مضى في سماء الشرق، ومنها تخرج صورته لتهيمن على العالم.

٩ ـ تفاعل الاسلام مع المسلمين:

أ) الحركات الدينية في المنطقة العربية: مع محمد بن عبد الوهاب ثم الحركات الاسلامية الأخرى كالألوسية والسنوسية وحركة المهدي في السودان بدأ الاسلام يتحرك في المنطقة منذ أواخر القرن الثامن عشر أو أوائل القرن التاسع عشر. فقد قالت الدعوة الوهابية بعودة الدين إلى صفائه الأول مرتكزة على آراء الإمام ابن حنبل. وامتدت حتى شملت المملكة العربية السعودية كلها. وفي تلك البلاد تطبق الآن نصوص القرآن بشكل يكاد يكون حرفياً.

ثم ظهرت الحركات الإصلاحية المعتدلة مع جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا. واستفاقت الثورات الدينية في المنطقة، وهي لا تخلو من رؤيا سياسية. «فمن المحيط الهادي، إلى أفريقية السوداء، إلى التخوم السيبيرية يستيقظ الاسلام. يعود للإشتعال، فتتأجج ناره في مكان، بينما هي لا تزال في مكان آخر احمراراً متقطعاً[٢١]». وما أحداث لبنان وإيران إلا تأكيد على ذلك. فالثورات السياسية في المنطقة

(٢١) مجهول المؤلف، بدأت الحرب الاسلامية الكبرى، العمل، ١٩٧٩/١/٢.

العربية لا تلبث أن تأخذ وجهاً دينياً لدعم خلفيّة سياسية. «حتى في الإتحاد السوفياتي نفسه، يشكل المسلمون ٢٢٪ من السكان. بيد أن ٥٢٪ من هؤلاء هم دون السنوات العشر من العمر. وهذا يعني أنه، في العام ٢٠٠٠، سيكون عدد المسلمين السوفيات ٩٠ مليوناً من أصل مجموع السكان البالغ ثلاثمئة مليون نسمة - أي إنهم سيكونون ثلث سكان البلاد تقريباً. فالشيوعية نفسها لم تستطع أن تمتص الاسلام. وإذا ما نظرنا إلى هيكلية الدول العربية نفسها (أي الدول التي تنتمي إلى جامعة الدول العربية) وجدنا أنها تتجه، حتى في عصرنا هذا، إلى التمسك بعادات الديانة الصافية. وانقلاب ضياء الحق على ذو الفقار في الباكستان أعاد التنظيم إلى ما كان عليه قبل علي بوتو (إقالة مجلس الإيديولوجية الاسلامية - أمر المذيعات بتغطية أيديهن وأرجلهن. . .). وفي الصين اليوم أكثر من عشرين مليون مسلم. وحتى في أفريقية الإستوائية ينتشر الاسلام (أكثر من خمسين أو ستين مليون مسلم)؛ وفي القريب العاجل، قد يشكلون ربع سكان البلاد.

كل ما ذكرنا انتفاضة اسلامية في عصر دول فردية بالقياس إلى الإمبراطورية الاسلامية القديمة. ولكن، ما يعنينا هنا أن من لم يكن مسلماً، بات اليوم يتمتع بنفوذ واسع حتى في مراكز الدولة؛ الأمر الوحيد الذي لا يمكن لغير المسلم أن

يحصل عليه في الدولة الاسلامية هو الحكم. كما أن المؤسسات العالمية الناظرة في شؤون الأقليات قويت جداً، ومنها هيئة الأمم المتحدة.

بيد أن أمر الديانات الكتابية ظل ممقوتاً في الدول الاسلامية. حسبنا أن نذكر هنا الصدامات التي وقعت في مصر بين أنور السادات والأقباط مثلاً. فقد بقي الطابع الاسلامي غالباً؛ وهذا بدهي، فالمسلم لا يقبل أن يحكمه غير مسلم. حتى إن مفهوم العروبة نفسه قد تغير، فارتبط مباشرة بالاسلام. وهذا الأمر دفع بعض المستشرقين - كالإنكليزي «جِبّ» - إلى اعتبار العربي مَنْ يرى أن دعوة النبي محمد هي الحدث المركزي في التاريخ، إلى جانب تبنّيه اللغة العربية لغة رسمية.

ب) بعض الحقائق حول الشريعة وتطبيقها وموقفها من غير المسلم في العالم الحديث: عندما انطلق الاسلام لتنظيم أمور العرب كان ديناً له خلفية سياسية واقتصادية. ومن هنا قلنا إن القرآن كَرَّسَ ديناً عملياً في المقام الأول، لأنه شرع لجميع الأمور الأرضية بدون استثناء. وتعامله مع أهل الذمة كان تعاملاً خاصاً لأنهم كانوا نوايا مهمة في المجتمع. وإن أردنا أن ننظر إلى المسيرة الاسلامية في واقعها الحديث، رأينا أن جميع المسائل السياسية، ثورات كانت أم انقلابات أم حركات، جميعها ذات شعار ديني. فالاسلام بدأ ينهض من

جديد في المنطقة. وثمة عنصر جديد صار سلاحاً حديثاً وفعالاً بين يدي العرب هو النفط. وهذا يعطي العرب المسلمين بشكل خاص، والمسلمين بشكل عام في المنطقة، مجالاً حيوياً أبعد في جهادهم مع سواهم من الأديان والسياسيين، «لأن معظم الحركات الدينية أو الآخذة غلاف الدين ذات خلفية اقتصادية وسياسية ونفطية، تتخذ الشعار أو الشكل الذي يستهوي الكثيرين، وربما الأكثرية في البلاد المتخلفة(٢٢)». هكذا نرى أن الدين ما زال عنصراً فعالاً هائل القوة بيد المسلمين. والاسلام دين جهاد، ولذا فلا بد له من غليان دائم وانتفاضات دائمة، كلما دعت الحاجة إلى قلب الأنظمة المناهضة لروح الشريعة الاسلامية. يقول الملك فهد: «نحن، في السعودية، نرتكز كلّياً، وبإيمان، على دستورنا، أي القرآن الكريم، ونطبق الشريعة بحذافيرها. إلا أنه لا يوجد نص في الاسلام يمنعنا من تبني الحضارة الحديثة، طالما لا يتناقض هذا التحديث وأصول الشريعة الاسلامية». ويقول: «إن المملكة (ويعني العربية السعودية) لا تغير في مبادئها أو في خطوط سياستها العريضة. فنحن كمسلمين نحارب الإلحاد، فتلك مسؤولية يفترض أن

---

(٢٢) هادي نصار، احذروا من استفاق في المنطقة، النهار، الأحد ١٩٧٩/١/٢١.

يتحملها العالم العربي بأجمعه[٢٣]». فالمسلمون لا يعارضون إلا الذين يخالفون القرآن ونظمه وشرائعه؛ وكل من كفر يجب أن يحارب، لأنه عدوّ للمسلمين، كما تقول الشريعة. إنهم يحاربون الإلحاد، والخارج/الغرب يهدد دينهم، ولذا يحاربون تياراته. يقول مكسيم رودنسون: «يجب الإكتفاء، في أحسن الحالات، باسلام يضمن، بعد فوات الأوان، المواقف المناهضة للأمركيين، أو المناهضة للغرب، لسلطة ما[٢٤]».

من جهة ثانية قلنا إن الحروب الصليبية القديمة زعزعت أركان المسلمين، وقوّضت بنيان دولتهم المضعضعة، ولذا «فقد أصبح الاسلام يعتبر، حتى خارج العالم الاسلامي، أنه كان ولا يزال بدون أي تخلّف، على رأس مقاومة أوروبة المسيحية التوسعية والمبشّرة والإستعمارية... وهم يُعتبرون بالتالي، جميعاً، من غير المسلمين، ومن المناهضين للاسلام، أو ضلّلتهم تبعتهم للتيار المناهض للاسلام[٢٥]»، فعليهم أن يرتدوا إلى الدين القويم.

هكذا نفهم الدافع إلى أحداث لبنان وإيران الذي أفرز،

---

(٢٣) الأمير فهد لنيوزويك: نحن لا نخاف على ثرواتنا، الأنوار، الإثنين ١٩٧٩/١/٢٢.

(٢٤) مكسيم رودنسون، هل استفاقت التهامية الاسلامية؟ العمل، الخميس، ١٩٧٩/١/٤.

(٢٥) مكسيم رودنسون، هل استفاقت التهامية الاسلامية، الأربعاء ١٩٧٩/١/٣.

من بعد، أهدافاً سياسية، «فالمعتقدات المعادية للعرب التي تؤمن بها نخبة من القوميين الأتراك والإيرانيين لا تمتلك مؤثراً كافياً. . . لكي تثير تعبئة حادة لدى الجماهير غير المهتمة بالأمجاد ما قبل الاسلامية. . . وهنا أيضاً فإن الأعداء الماثلين في الذهن هم من غير المسلمين: الملحدون الروس. . . الأتراك والإيرانيون في آسية الوسطى. . . وكذلك الأوروبيون والأمريكيون المسيحيون. . . وهم يقوّضون ويفسدون الاسلام لصالح ممارساتهم الملحدة[٢٦]».

علاقة الاسلام بسواه، إذاً، في العصر الحديث صارت علاقة متوترة، كثيراً ما يسيطر عليها العداء المتبادَل. وعلى الرغم من محاولات الحوار بين الكنيسة والمسلمين، تبقى صورة المسلمين في الغرب مضطربة، وتبقى صورة الغرب بالنسبة إلى العالم الاسلامي تمثل، مدّاً عدئياً، ورمزاً للمستعمر القوي الذي يكن العداء لأتباع النبي.

(٢٦) الموضع نفسه. وهذا الكلام لرودنسون كان قبل قيام الجمهورية الاسلامية في ايران.

العلوم الدينية في الحقبة الأموية
(تيار التقليد وتيار التجديد)

غير يقظة ضعفاً سياسياً، والمعطيات التاريخية التي تؤكد أن تحالف الصليبيين الأتراك والأوروبيين لا يمتلك مبرراً كافياً... لكن أكثر تحالفاً حدة لدى المطلعين على المهيمنة والأعداء ما قبل الإسلاميين، وبعد أيضاً فإن الأعداء الذاتيين في الماضي هم من غير المسلمين: المغول، الروس، الأتراك والإيرانيين في آسيا الوسطى... وكذلك الأوروبيون والأمريكيون المسيحيون... وهم يعرفون ويستعبدون الإسلام لصالح مآربهم الخاصة[23].

[illegible] وعلى الرغم من محاولات التحاور بين الكنيسة والمسلمين تبقى صورة المسلمين في الغرب مضطربة، وتبقى صورة الغرب بالنسبة إلى العالم الإسلامي تمثل، مبدأ عدائياً، ورمزاً للمستعمر القوي الذي يكن العداء لأتباع النبي.

---

(23) المرجع نفسه. وهذا الكلام قد [illegible] قبل قيام الجمهورية الإسلامية في إيران.

- مقدمة: منذ مجيء النبي، زحف الاسلام إلى الجزيرة العربية، ثم اندفع إلى خارجها، متوسعاً، معمماً على الشعوب ديانة جديدة. ولعل أكثر ما يلفت الإنتباه في ظاهرة نشر الدين الاسلامي هو المناظرات، وطرق الفهم التي تشعّبت الواحدة تلو الأخرى. ففي الحقبة الراشدية، انتهاء بعليّ، انقسم المسلمون إلى أقسام وفرق، كان جوهرها دينياً وخلفيتها سياسية، نذكر منها شيعة آل البيت وأتباعهم، والسنيين، والخوراج الذين خرجوا على علي لقبوله التحكيم في موقعة صفين.

وفي الحقبة الأموية كانت الأحزاب كثيرة، منها الحزب الأموي الحاكم، ومنها المناهض له كالزبيريين أتباع عبد الله بن الزبير، والعلويين (الشيعة) والخوارج.

في صلب هذه الدولة الجديدة نشأت حركات دينية. ولقد

ارتأينا أن نقسم هذه الحركات أو المذاهب إلى تيارين يختلفان في طريقة فهم الشريعة، أو، لنقل في المنهج المتبع. فالاول تيار التقليد، ونريد به ما أخذ بالنص القرآني والسنة النبوية أخذا يكاد يكون حرفياً، معتبراً أن كل ابتعاد عنها أنما هو ابتعاد عن الأصل وبدعة، وبذا انحراف نحو الخطأ. ونذكر هنا الشيعة الإمامية (الإثني عشرية). فلقد تشدّد هؤلاء في أن الإمام المعصوم لا يكون إلا من آل البيت ومن أهل النبي، لأن إمامته أمر من الله. فالأصل قديم، والقديم أبعد من الزمان. وقياساً على ذلك، الله قديم، وكذلك شريعته. لقد اعتُبرت قضية الإمام بقدم الشريعة؛ وبما أن القديم هو الأصل، فهو الثابت والمطلق، وكل ما عداه باطل؛ وإرادة الله تثبت في كل مكان وزمان. من هنا ثبات الشريعة التي لا مجال لتغييرها. وكل من يُخَرِّج فيها، أو يخرج عنها فقد كفر. واستنتج الشيعة من هذا أن جميع الذين خرجوا على آل البيت كفرة ضلّوا الصراط المستقيم.

أما التيار الثاني ـ وهو تيار التجديد ـ فيقول بتحكيم العقل وبالتخريج. ويمثله أحسن تمثيل المعتزلة والمرجئون وسواهم ممن سنأتي على ذكرهم.

ومن هذين التيارين نستنتج أن الحركة الدينية في المرحلة الاسلامية الأولى كانت حركة ذات أفق واحد في الرؤيا، لأنها اتجهت نحو هدف واحد: تثبيت كلام الله وإسقاط سواه،

لأن كل تخريج تحريف لكلام النبي، وخروج على الأصل والصواب الثابتين المطلقين. بهذا نفهم لماذا كان الشعر الاسلامي والمقاييس التي كان يقاس بها مشحونة بمضمون أخلاقي معين له طابع ديني.

ولعل الحقبة الأموية كانت مرحلة تفجير العصبيات القبلية وبعثها من جديد، واندلاع الصراعات السياسية الأهلية ـ ما أدى إلى التشديد على أهمية الحركات الدينية وعلومها، وإلى النظر في مقولات الدين وفقاً لرأي كل فئة. وعلى هذا الأساس نطرح دراستنا.

ـ نشأة البحث في الدين: بحث العرب في عقائدهم الدينية؛ وسُمّي هذا «الفِقْه في الدين» أو «الفقه في العلم». ثم صارت هذه التسمية في العصر العباسي «علم الكلام». ولنشأة هذا النوع من البحث أسباب داخلية وخارجية. أما الأسباب الداخلية فأهمها:

١ ـ عرض القرآن لجملة من الفرق الدينية التي كانت منتشرة قبل الاسلام، وراح يرد عليها. كما عرض للمشركين عَبَدَة الأصنام والاوثان، محاولاً أن يدحض آراءهم وآراء من أنكر نبوة محمد والحشر والقيامة والثواب والعقاب، ومن نظر أو آمن في مسائل الجبر والإختيار والتسيير والتكليف، مركزاً عرضه على حجج وبراهين دينية. ونتيجة لهذا، رد علماء الدين على المخالفين، بطريقة النبي.

٢ ـ كلما تطورت حضارة المسلمين وفتوحاتهم، فلسف عقلهم الدين، وبلغ من النضج ما يمكّنه من فهمه أكثر. ثم اصطبغ الدين بصبغة فلسفية عند المرجئة والقدريين والجبريين والمعتزلة بصورة أخص. فدعموا حججهم وقووها بعلم المنطق. وهكذا فعل النصارى واليهود. ولكن المسلمين اختلفوا في عرضهم هذه الأمور، فتعددت الفرق والمذاهب، وتضاربت الآراء. فالمسلمون الأول، ومن سار على نهجهم، آمنوا إيماناً قوياً لا جدل فيه، وفضّلوه على العقل. فالإنسان، عندهم، مكلّف بما أمر الله، بدون أن يبحث في أمره. ومنهم من عَقْلَنَ الدين ومَنْطَقَه، فتأول الآيات، وأعمل فيها النظريات الفلسفية، وخرج بنتائج تتماشى مع منطق العقل.

٣ ـ لم يذكر القرآن كيف يُعَيَّن خليفة النبي، ولا نصّ على نظام لهذا التعيين، خلا ما جاء ذكره في بعض الأحاديث النبوية من شروط. ولعل الناظر في هذا الأمر يرى أن هذه القضية سياسية في المقام الأول. لذلك نشأت الأحزاب السياسية، واندلعت بينها المعارك في الحقبة الأموية. وقامت الثورات في العراق بصورة خاصة، وفي الحجاز (وأن تكن محدودة هناك). لكن النظر في أمر هذه الأحزاب يجعلنا ندرك رؤياها الدينية، فنعلم جدلها في الأمور الدينية ليس غريباً، كالكفر والإيمان، والجنة والنار. وحكموا على صلاح الخليفة أو فساده من خلال الدين، وكثيراً ما لجأوا إلى السيف.

وأما أهم الأسباب الخارجية فهي الآتية:

١ - إن الكثير ممن أسلموا نشأوا على تعاليم ديانتهم السابقة. وبعضهم كان ضليعاً بها. ثم أثاروا مسائل دينهم القديم (أحمد بن حائط).

٢ - الفرق الاسلامية الأولى وضعت نصب أعينها الدعوة إلى الاسلام، والرد على مخالفيه، فأحاطت بمعارف الفرق الأجنبية. وكثر الجدل، إذ إن النصارى واليهود كانوا يفلسفون دينهم، ما أجبر المعتزلة مثلاً على اللجوء إلى الفلسفة والمنطق في دعم حِججهم الدينية.

٣ - أجبر هذا علماء الدين على دراسة الفلسفة اليونانية وعلم المنطق الأرسطي بصورة خاصة.

١ - تيار التقليد:

أ - علاقة الوحي بالزمن - التقسيم الزمني: عندما أُنزل القرآن، وُضعت الصورة النهائية للزمن. فالدين الاسلامي هو المطلق. إنه الماضي الذي يتضمن الحاضر والمستقبل، والتاريخ الذي يحتوي على مطلق التواريخ. يقول أدونيس: «الوحي تأسيس للزمن وللتاريخ في آنٍ، أو هو بداية الزمن والتاريخ. وهو لذلك ليس زمناً ماضياً، بل هو الزمان كله: الأمس والآن والغد. والآن والغد لا يكشفان عما يتجاوز الوحي، بل إنهما، على العكس يشهدان له. الآن لحظة تذكير، وكذلك الغد. فليس المستقبل عامل اكتشاف، بل

بُعْد حفظ، واستعارة؛ وليس عامل تغيير، بل عامل تدبير[١]».

من هنا، فالوحي أساس الزمن في الديانة الاسلامية. فلا تقاس الأشياء ولا الزمان التاريخي إلا من حيث انطلاقها من زمن الوحي، وارتباطها به. بتعبير آخر، تقوم كثافة الزمان بوساطة الوحي. لذلك، فإن هذا الزمن يختلف عن مفهوم الزمان المعروف، لأن هذا الزمن الثاني (الزمن التاريخي) صائر وزائل، والماضي فيه، انصرامٌ يحمل بذرة الآتي. أي أنه، في ـ ذاته، مستقبل بالقوة. أما زمن الوحي (الزمن فوق التاريخي transhitorique) فنقيض الانصرام، لأنه تعبير عن الفكرة المطلقة التي تتخطى الإنسان والتاريخ والعالم في آن. إنها الحضور في أعلى تجلياته. فالماضي لا يصير ماضياً، بل يبقى حاضراً في الحاضر والآتي. وكأنما هو مجموعة آنات منفصلة، لا تتغير، تبنى عليها هيكلية التاريخ، وتقاس بها الأشياء والوجود. إنه كما يعبّر أدونيس، «قوة الزمان». وهذه القوة تحمل بذرة الأبدية.

نستنتج من ذلك ما يلي:

١ ـ أن زمن الوحي مقياس الوجود.

٢ ـ أنه سرمدي. فهو ماضٍ ـ حاضر باستمرار.

---

(١) أدونيس، الثابت والمتحول، دار العودة، ١٩٧٤، ٣٦/١.

٣ ـ أنه الأصل لأنه كلام الله. فهو يأخذ من صفاته الإستمرارية، والحضور المستمر، والمطلق، والتسامي transcendance.

٤ ـ أن الزمن ما فوق التاريخي يختلف عن الزمن التاريخي؛ فالثاني ينبثق من الأول ويحمل صفات الإنسان لأنه زمنه: فصفته الصيرورة لا الديمومة، والتحول لا الثبات، والمحدودية في الوجود لا السرمدية، والنسبية لا المطلق.

٥ ـ أن مفهوم الزمن بات ذا وجهين مع الدعوة الاسلامية: الوجه الأول هو الزوال والسقوط، لأنه ابتعاد عن الأصل الذي تستمد منه الأشياء حضورها بمقدار انغماسها فيه. أما الوجه الثاني (وهو المرتبط بزمن الوحي) فالاستمرارية، بحيث أن الآنات فيها تبقى إياها دائماً، فلا تصير شكلاً من أشكال الماضي، ولا يعود ثمة ماضٍ وحاضر وآتٍ.

من خلال مفهوم الزمن الذي عرضنا نفهم معنى تيار التقليد. فالمسلم التقليدي لا يُعمل العقل في المقام الأول، بل ينطلق من الإيمان. والإيمان هو الذي يستدعي، من ثم، العقل. المسلم يحاول أن يطبق زمنه في كل مرحلة من مراحل التاريخ. ولا تكون جميع اجتهاداته الدينية صحيحة، بنظره، إلا إذا حاكت الأصل. من هنا نشأ تيار التقليد.

ولما كانت الحقبة الأموية انتقالاً من ذهنية الماضي إلى ذهنية الحاضر، بمعنى ما، فإن معاوية يمثل الذهنية الثانية، فيما علي يمثل الذهنية الأولى. والصراع بينهما هو صراع بين ايديولوجيتين دينيتين متعارضتين في الجوهر. وتمثل تيار الثبات بحركتين فكريتين دينيتين هما الشيعة والسُنّة. فيما تمثل حركة التحول بالخوارج والمرجئة والقدرية والجهمية والمعتزلة.

ب ـ الشيعة ـ عقائدهم ـ مسألة الإمامة: هم أتباع علي بن أبي طالب الذين يرون أنه الأحق في الخلافة بعد النبي، مستندين إلى حديث غدير «خُم» (وهو حديث للنبي قرب غدير يدعى «خم» دعا فيه المسلمين الذين يوالونه إلى موالاة علي. وكان الخلاف بين الشيعة والسنّة على تفسير لفظة «مولى» في هذا الحديث).

يرى الشيعة أن علياً هو الخليفة الشرعي لأنه عاش في بيت النبي، ونام في سريره، وكان قريبه وربّيبه. وهو من قريش أيضاً. ومن الملاحظ أن جميع الديانات التي تفرعت عن الشيعة كالإثني عشرية (الأمامية) والسبعية (الإسماعيلية) والكيسانية. . . لها خليفة سياسية. إلا أن مفهوم الشيعة للدين هو ما يهمنا في دراستنا. فالإمام يطبق نص الشرائع القرآنية بحذافيره. وهذا يعني أنه يعيد استحضار الأصل. والإمام عندهم معصوم. وهو ينفذ مشيئة الله، لهذا السبب يحمل صفة العصمة. هنا، تظهر لنا المسافة الفاصلة بين زمن

الإنسان وزمن الدين. فـالإنسان مخـطئ حادث، محـدود. والإمام معصوم، طاهر، يفعل بمشيئة الله أو بـوحي منه. ولهذا السبب جعل الفارابي «الرئيس» في مدينته الفاضلة على صلة «بالعقل العـاشر الفعّال» خـالق الوجـود والهيولى التي انبثقت منها العناصر الأربعة.

وفكرة الوصيّ لها مدلول عميق أيضاً. فـالوصي هـو مَنْ يوصى له بالخلافة. وقياساً على هـذا، كل إمـامٍ وصيٌّ مَنْ قَبْله. ومسألة الوصاية تؤكد على تثبيت الثابت.

وثمة طائفة من الشيعة ألّهت علياً، فزعمت أنه حلّ فيه جزء إلهي متحد به، جعله عالماً بالغيب. ولقد أخبروا عنه أنه قال: «والله ما قَلَعْتُ باب خيبر بقوة جسدانية ولا بحركـة غذائية، ولكن قلعته بقوة ملكوتية... قالوا: يظهر عليّ في بعض الأزمان... والرعد صوته، والبرق تبسّمه[٢]»...

ولعـل مردّ هـذه العقيدة إلى تأثُّر بـالـدين المسيحي أو اليهودي. فمعظم هؤلاء الشيعة «كانوا من عناصر متنوعة؛ والعراق، من قديم، منبـع الديـانات المختلفـة، والمذاهب الغريبة، وقد سادت فيهم، من قبـل، تعاليم مـاني ومزدك وابن ديصـان... ومنهم نصارى ويهـود سمعوا المـذاهب المختلفة في حلول الله في بعض الناس ـ كـل هذه الأمـور جعلت منهم من يؤله علياً. فأما العرب فكانوا أبعد الناس

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ١٧٤/١. وهذا قول السبئية.

عن المقالات والمذاهب الدينية؛ حياتهم البسيطة، وعقليتهم التي على الفطرة تأبى عليهم أن يلصقوا بمحمد (ص) ألوهية[3]».

أما بالنسبة إلى أساس نظرية الشيعة فهي الامامة والخلافة. وهم يسلسلون الأئمة ابتداء من علي. والإمام، كما يعتقدون، «أكبر معلم». فهو ورث علوم النبي وليس شخصاً عادياً، بل فوق الناس بعصمته.

والمعرفة، بنظرهم، نوعان: ظاهرية وباطنية. أما الظاهرية فيعلم بها الناس أجمعون، لأنها معرفة السطح بدون سبر غور الجوهر. أما الباطنية فهي إدراك كنه الآيات القرآنية، والإلمام بالمعارف الغيبية. إنها ولوج إلى ما وراء ظاهر الأشياء - إلى الباطن حيث حقيقة الظاهرة القرآنية وجوهرها.

وأهم فرق الشيعة الزيدية والإمامية والكيسانية والغلاة. أما الزيدية فترى جواز الإمام المفضول مع إمكان وجود غيره أفضل منه، كما كانت الحال مع أبي بكر وعمر وعثمان؛ فقد كانوا جميعاً أئمة، إلا أن عليًّا كان أفضل منهم! لقد نظر هؤلاء إلى الإمام نظرة معتدلة، فسمحوا «لكل فاطمي زاهد، شجاع، سخيّ، قادر على القتال في سبيل الحق يخرج للمطالبة به... أن يكون إماماً[4]».

(٣) أحمد أمين، فجر الاسلام، ص ٢٧١.
(٤) أحمد أمين، فجر الاسلام، ص ٢٧٢.

ونظرية الإمام لها مدلول عميق: فقد اختاره الله ليحفظ رسالته على الأرض. وقد أوحى إلى الإمام السابق بأن يوصي بـه. هكذا صـار الإمام عـلى اتصال بـالمطلق يستمـد منه عصمته، ويقوم بما يريد، وبما يحقق الأصل الذي هو الشريعة ويؤصله. وقد رأى الشيعة الغلاة ما يلي(٥):

١ ـ الله جسم وهـذا مبدأ التجسيم. أي أنـه عـلى هيئـة معبود. وهذه قضية «تجسيم المعبود».
٢ ـ جعل الأئمة مفضلين على الملائكة والأنبياء.
٣ ـ نظرية البَدَاء. فالله يبدو له الشيء، إلا أنه بإمكانه أن يغيره عندما يشاء.
٤ ـ رجوع الموتى قبل الحشر إلى هذه الدنيا.
٥ ـ من مات بدون أن يعرف الإمام كانت ميتته جاهلية.
٦ ـ الإمام يعرف الغيب.
٧ ـ النـاسخ والمنسـوخ إنما يكـونـان في الأخبـار لأنهما في الشرائع.
٨ ـ من خالفهم أثبتوا فيه الوعيد.
٩ ـ أسقطوا مبدأ الجهاد.
١٠ ـ سَبَوا نساء من عارضهم، وإن وَحّد الله.
١١ ـ التقيّة المبالغ فيها.

---

(٥) صبحي الصـالح، النظم الاسـلاميـة، دار العلم للمـلايـين، ط ٢، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

وفي هذا المناخ الشيعي قامت نظرية الإمامة التي قال بها أتباع الشيعة الإمامية، وهي ترتكز على أن علياً إمام. بمشيئة الله ورسوله. ولذا فهي «إرث خاص في أبناء علي إلى يوم القيامة(٦)».

والإمامة واجب لأن الشريعة الاسلامية مطلقة، سرمدية. فإن لم تُحْفَظ خرج عنها البشر، وغرقوا في الضياع. والإمام حافظ لها، لأن النظرية تقول بأن الحافظ إما أن يكون الأمة كلها، أو بعضاً منها. ولكن الأمة كلها تخطئ وتنسى، لأنها ليست معصومة. وعلى الحافظ أن يكون معصوماً. وهنا كان دور الإمام وعصمته. وبما أن علياً رأس الأئمة، فإن من سبقه، بعد النبي، كان غير صالح، لأن نظامه كان فاسداً(٧). فالوصية بعلي كإمام إنما هي من الله، وليست من النبي؛ لذا فهي قائمة منذ بدء الخليقة. والإمام «أعلم الخليقة»، فهو ينبوع المعرفة بعد النبي، وأساس علوم آل البيت. واعتمدت الشيعة الإمامية، كسواها، على القرآن في المقام الأول، ثم على الحديث النبوي، ثم على الإجماع شرط أن يتأيد بموافقة الإمام المعصوم، ثم على الأدلة العقلية والاجتهاد بدون أن يخرج عن التعليم والأصل الثابت. أما

(٦) أدونيس، الثابت والمتحول، ١/١٩٧.
(٧) الباري، فتح الباري، مصطفى البابي الحلبي وشهاب الدين بن حجر العقلاني، القاهرة ١٩٥٩، ١/١٧٥.

علم الإمام فينقسم إلى ثلاثة أقسام:
- الأول يظهره الإمام للشعب، وهو المتعلق بالأوامر والنواهي.
- والثاني يختص بالأئمة المعصومين، فلا يحمله غيرهم أبداً.
- والثالث لا يعلم به إلا عليّ والنبي، «وهو العلم بكنه كل منهما، ولا يعلم كنههما إلا هما[٨]».

والإمام علمه منقسم إلى قسمين: كونيّ يُعْرَف به ما هو كائن، وإمكاني يُعْرَف به ما سيكون.

تلك، بشكل عام، نظرية الشيعة في الدين. وقد عالجنا منها نموذجين فقط، علماً بأن ثمة مذاهب أخرى للشيعة كالنصيرية (في سورية)، والجعفرية والإسماعيلية (في أفغانستان).

ج - أهم الأحداث التي قام بها الشيعة في حقبة بني أمية: كان المغيرة بن شعبة والي الكوفة في عهد معاوية. ثم توفي، فعُيّن خلفاً له زياد بن أبيه، فأخذ الكوفة بالشدة. وكان حُجْر بن عَديّ ممن يدّعي التشيُّع ولا يخفيه، فيهاجم الأمويين. فضيّق زياد الخناق عليه وعلى كل من ما شاه من الشيعة، فلجأوا إلى السلاح حتى قضى زياد عليهم. فعدَّه الشيعة ومَنْ مات معه

(٨) أبو حسن علي الندوي، رجال الفكر والدعوة في الاسلام، دار الفتح (دمشق)، ط ٢، ١٩٦٥، ص ٤٢-٤٣.

شهيداً. وخلف زياداً عبدُ الله بن خالد بن أسير، ثم الضحّاك بن قيس الفهري، فعبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي، فالنعمان بن بشير[٩]. وتوفي معاوية، وكان عبيد الله ابن زياد والي البصرة، فضم يزيد الكوفة إليه، فخرج عليه كل من الحسين بن علي بن أبي طالب، وعبدالله بن الزبير من بعد. وبايع اثنا عشر ألفاً من أهل الكوفة مسلم بن عقيل إبن عم الحسين. ثم خرج الحسين إليهم، وبلغه خبر تسليم أهل الكوفة ابن عمه إلى عبيد الله بن زياد، وأنه قتل؛ فتابع مسيرته، وقتل بكربلاء مع مئة من أهله. وقيلت فيه مراث كثيرة، منها قول سليمان بن قَتّة:

مَـرَرْتُ عَـلَى أَبْـيَـاتِ آلِ مُـحَـمَّـدٍ
فَـلَمْ أَرَهـا كَـعَـهْـدِهـا يَـوْمَ حُـلَّتِ

وَكـانـوا رجـاءً ثـم صـاروا رزيـةً
وقـد عـظمـت تـلك الـرزايـا وجُـلَّتِ

ألـم تـرَ أنَّ الـشَّـمْسَ أضْـحَـتْ مَـريـضَـةً
لِـفَـقْـدِ حُـسَـيْـنٍ والْـبِـلادَ اقْـشَـعَـرَّتِ؟

وَقَـدْ أعْـوَلَـتْ تَبكي السَّـمَـاءُ لِـفَـقْـدِهِ
وَأنْـجُـمُـهَـا نـاحَـتْ عَـلَيْـهِ وَصَـلَّتِ

---

(٩)- شوقي ضيف، العصر الاسلامي، دار المعارف، ط ٧، ص ١٥٥.

وقد حرّضوا على الأخذ بثأره، وسفك دماء قاتليه، «وهو تحريض تحول إلى رغبة شديدة في سفك الدماء، حتى يغسل الشيعة عنهم عار القعود عن نصرته. وتحول ذلك عند طائفة منهم إلى ما يمكن أن نسميه «غريزة الدم المسفوح». ومن خير من يصورها عَوْف بن عبد الله بن الأحمر الأزدي»[١] ومن هذا الشعر قوله:

لَـبَـيْـكِ حُـسَـيْـنـاً كُـلَّمـا ذَرَّ شَـارِقٌ
وَعِنْـدَ غُسُـوقِ اَللَّيْـلِ مَنْ كَـان بـاكِيـا
وَيَـا لَيْتَني إِذْ كَـانَ كُـنْتُ شَـهِـدْتُـهُ
فَـضَـارَبْتُ عَنْـهُ اَلشَّـائِنِيـنَ الأَعَـادِيـا
وَدَافَعْتُ عَـنْـهُ مَـا اَسْتَـطَعْتُ مُجَاهِـداً
وَأَعْـمَلْتُ سَـيْفِـي فِيْـهِـمُ وَسِـنَـانِيَـا

ومنه قول عبيد الله بن الحر:

وَيَـا نَـدَمِـي أَنْ لا أَكُـونَ نَـصَـرْتُـهُ
أَلاَ كُـلُّ نَـفْسٍ لاَ تُـسَـدَّدُ نَـادِمَـهْ
وَإِنِّـي لأَنِّـي لَـمْ أَكُـنْ مِـنْ حُـمَـاتِـهِ
لَـذُو حَـسْـرَةٍ مَـا إِنْ تُـفَـارِقُ لاَزِمَـهْ

وبعد وفاة يزيد غادر عبيد الله بن زياد إلى دمشق.

(١) المرجع نفسه، ص ٣١٦

ونشأت فرقة التوّابين بقيادة سليمان بن صُرَد وحملوا حملة على الشام، ولكنهم التقوا في عين الوردة بجيش أموي كسرهم، وقضى على سليمان، وعاد من بقي حيًّا منهم إلى الكوفة. وعندئذ قامت ثورة المختار الثقفي الذي جمع الشيعة تحت لواء محمد بن الحنفية(١١)، وطردوا والي ابن الزبير من الكوفة، وفتكوا بمناصري الأمويين. وقام المختار الثقفي بحملة على الشام بقيادة ابراهيم بن الأشتر، وكانت موقعة خازر بينه وبين عبيد الله بن زياد، مات فيها عبيد. وولّى ابن الزبير أخاه مصعباً على البصرة، فتمكن هذا من قتل المختار الثقفي، وضم الكوفة إلى طاعته. ومن أقوال كُثَيِّرٍ في ابن الزبير عندما عاذ بالبيت الحرام لعهد يزيد:

تُخَبِّرُ مَا لاقَيْتَ إنَكَ عَائِدُ
بَلِ ٱلعَائِدُ ٱلمَظْلُومُ في سِجْنِ عَارِمِ
وَصِيُّ ٱلنَّبي المُصْطَفى وَٱبْنُ عَمِّهِ
وَفَكَّاكُ أَغْلاَلٍ وَنَفَّاعُ غَارِمِ
أَبَى فَهْوَ لاَ يَشْري هُدًى بِضَلاَلَةٍ
وَلاَ يَتَّقِي فِي ٱللهِ لَوْمَةَ لاَئِمِ

---

(١١) وهو ابن الامام علي من غير فاطمة بنت النبي محمد (أمه امرأة من آل حنيفة، وقد نُسِب إليها).

وَنَــحْــنُ بِـحَـمْــدِ ٱللهِ نَــتْــلُو كِــتَــابَــهُ
حُلُولاً بِهَــذا ٱلـخَيْف خَيْفِ ٱلـمَـحَـارِمِ
بِحَيْـثُ ٱلحَمَـامُ آمِنُ ٱلـرَّوْعِ ، سَـاكِـنٌ،
وَحَيْثُ ٱلـعَـدُوُّ كَـالصَّـديـقِ ٱلمُسَـالِمِ
وَمَـا فَـرَحُ الـدُّنـيـا بِـبَـاقٍ لِأَهْـلِهِ،
وَلاَ شِـدَّةُ الـبَـلْوَى بِـضَـرْبَـةِ لاَزِمِ

وقد قال فيه هذه الأبيات عندما سجن ابن الزبير المختار الثقفي مؤسس الكيسانية. ثم طالعتنا في عهد الحجاج بن يوسف ثورة ابن الاشعث التي قُضيَ عليها، ثم قُتل ابن الأشعث. وما لبث زيد بن علي بن الحسين أن ظهر، وهو مؤسس الزيدية، فخرج للحرب، ولكن رجاله تخلوا عنه، فقتله ومن معه يوسف بن عمر، وصلب في سوق الكناسة. وسقطت الدولة الأموية أخيراً، وكان أبو مسلم الخراساني قائد الثورة التي أوصلت العباسيين إلى الحكم.

وكان للشيعة خطباء كثيرون، بثوا في خطبهم أفكار أهل البيت، وحرضوا على الأمويين: نذكر مثلاً مطلع خطبة للحسين بن علي: «أما بعد، أيها الناس فانكم إن تَتَّقُوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لِلّه. ونحن ـ أهلَ البيت ـ أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم،

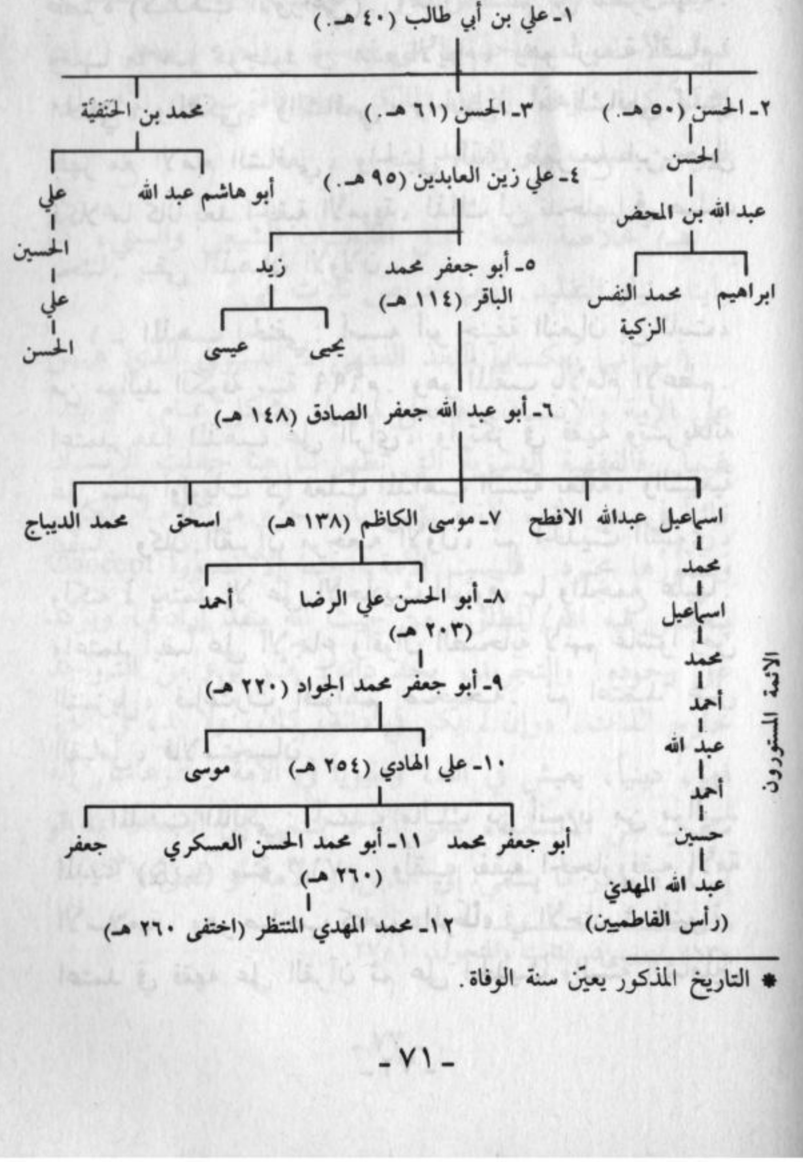
والسائرين منكم بالجور والعدوان»[١٢] ومن خطباء التوابين ـ وهم مَنْ أعلن أنه تاب عن سكوته عن الثأر للحسين ـ سليمان بن صُرَد وعبيدالله بن عبدالله المرّي، وهو خطيب ممتاز، كان لأقواله فعل كبير في نفوس الناس. من بعض خطبه: «هل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها؟ وهل ذرّية أحد من النبيّين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرّية رسولها؟ لا، والله، ما كان ولا يكون، ألم تروا ويبلغهم ما اجتُرم إلى ابن بنت نبيّكم... وترميلهم إياه بالدم وتجرارهموه على الأرض؟ ألم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابة من الرسول صلّى الله عليه وسلم... ابن أول المسلمين إسلاماً، وابن بنت رسول العالمين، قتله عدّوه وخذله وليّه، فويل للقاتل وملامة للخاذل... إلا أن يناصح الله في التوبة، فيجاهد القاتلين... وعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويقيل العثرة... إنّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد المحلّين والمارقين».

تلك كانت أهم الأحداث التي وقعت بين السُنَّة والأمويين، وقد كانت، بمعظمها في الكوفة، لأنها عاصمتهم منذ علي. ولعلنا نكون بهذا قد اطلعنا على بعض آرائهم ومواقفهم.

---

(١٢) المرجع نفسه، ص ٤١٥

جدول بأسماء الأئمة عند الشيعة الاثني عشرية



* التاريخ المذكور يعيّن سنة الوفاة.

د) السُنَّة ـ أقسامهم الرئيسة: مذاهب أهل السنة قسمان: منها ما هو بائد تماماً، بعد أن كان قد فعل فعله في عصره (كمذهب الأوزاعي). وهذا القسم لن نتطرق إليه. ومنها ما هو موجود في هذه الأيام، وهو أربعة أقسام: الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي. أما الشافعي الذي ظهر مع الامام الشافعي، والحنبلي الذي ظهر مع ابن حنبل فكلاهما كانا بعد الحقبة الأموية، لذلك لن ندخلهما في صلب بحثنا. يبقى المذهبان الأولان.

١ ـ المذهب الحنفي: أسسه أبو حنيفة النعمان بن ثابت، من مواليد الكوفة سنة ٦٩٩م. وهو المُلقّب بالامام الأعظم. اعتمد هذا المذهب على الرأي، وارتكز في فقهه وتشريعاته على سلم أولويات كما فعلت المذاهب السنيّة بعامة، والشيعية أيضاً. وكان القرآن مرجعه الأول، ثم الحديث النبوي، ولكنه لم يعتمد إلا على الأحاديث الموثوق بها والمجمع عليها. واعتمد أيضاً على الإجماع وأقوال الصحابة لأنهم عاشوا زمن التنزيل، فاعتُبرت أقوالهم صحيحة. ثم اعتمد على القياس، فالاستحسان.

٢ ـ المذهب المالكي: أسسه مالك بن أنس، من مواليد المدينة (يثرب) سنة ٧١٣م. ولُقب بفقيه الحجازوفقيه الأمة الاسلامية. وهو صاحب كتاب «الموطّأ» في الأحاديث النبوية. اعتمد في فقهه على القرآن ثم على الحديث والسُّنة الشاملين

برأيه كلام النبي والصحابة وعمل أهل المدينة أيضاً: ثم على القياس، فالمصالح المرسلة.

بيد أن مالكاً كان من أهل الحديث، ولذا لم يتشدد في قبول الأحاديث، فأخذ بها متى حَسُنَت، ولكنه لم يهمل الرأي إهمالاً كلياً. وهذا الاتجاه المالكي عاد فاقترب من الأصول، فهو من صلب تيار التقليد.

هـ) خلاصة عامة: يمثل المذهبان الشيعي والسني، كما رأينا، تيار التقليد. ولهما خواصّ ثلاث هي:

١ - إنهما يعكسان البعد الفقهي - الدنيوي الذي هيمن على الأمة والانسان، فجعل منهما، بشكل عام، تجريداً غيبياً. فالفقهية الدنيوية التي تظهر لنا هنا جعلت الانسان كائناً في غير ذاته، لأنه يؤمن بأنه جزء من الأمة ككل، وَتصوُّرُها مجرد. فليست الأمة، هنا إلا تَصوّراً Concept ينعكس فيه الله/المطلق، من حيث أنه ينفذ إرادته، ويؤكد على وجوده. والتجريد، بحد ذاته، هو نوع من التواجد خارج الذات. «وإن لم يكن في ذاته، كان، ولا بد، في آلة: فهو، دينياً، يعيش في الله، ودنيوياً في الأمة ومتفرعاتها. إنه متغرّب عن الانسانية، بمعنى أنه لا ينتمي إلى الانسان بما هو إنسان، بقدر ما ينتمي إلى الدين أو الأمة أو الدولة»(١٣).

(١٣) ادونيس، الثابت والمتحول، ١/٢٧

تظهر لنا هذه المسألة التعارض القائم بين الفكر الديني واسقاطه الاجتماعي المؤدي إلى التغرّب عن الذات، وإلى القمع والرفض المعبرين عن الشعور بفقدان الذات، والانفراط في عالم ضاغط، رهيب، يقيم التعارض بين الانسان وذاته.

٢ ـ والقضية الثانية التي تطالعنا هي الماضوية. فالمسألة بالنسبة إلى السنة والشيعة هي بعث الماضي، أي بعث التيار الأفقي المعلوم، ورفض كل مجهول. المسألة هي في إيمان المسلم، لأن إيمانه لا يتكيّف إلا مع الفكر والأشياء التي من الممكن أن يستوعبها خياله. كما أن المسألة هي في أن المسلم التقليدي إذا ما كان أمامه شيء خارج عن إطار مفهومه، حاول فهمه بأن يقيسه على تراثه. فان لم يتلاءم معه، نفر منه. إن انطلاقته انطلاقة أفقية نحو الواضح. والدين الاسلامي كان صريحاً في أموره الدنيوية، وفي توجيهه الناس للتقيد به مطلقاً. وظيفة المسلم التقليدي، إذاً، أن يعيد تعبئة طاقته الدينية، لأنها، إذا نفدت، نَقُصَ هو وظيفيّاً، وعاد سديماً. فوجوده يستمر باستمرار الأشكال والآفاق الماضوية.

٣ ـ والقضية الثالثة هي جذرية الأصل. فالله، كما ذكرنا، هو الأساس، ومنه ينبثق الانسان والوجود بعامة. ولهذا السبب، الدين منبثق من عقل الله، ولا مجال لتغييره. إلا أن الله اختار أن يكون تنزيله في زمان النبي محمد، فأنزل

القـرآن. وهذا لا يعني أن القـرآن، منظوراً إليـه ككتاب، مطلق، بل مخلوق. ولكن التعليم القرآني، والاتجاه القرآني، مطلقان، لأنهما صادران عن عقل مطلق، واجب الوجـود. فالمعرفة الالهية سرمدية، والمعرفة الانسانية محـدودة، تتطلع صوب السرمدية لكي تتأملها وتعمل بأصولهـا، فتصيب أو تخطىء. وبما أن الأصل مطلق، فهو ماضٍ وحاضر وآتٍ في آن معاً. وهذا يعني أنه يتخطى الـزمن العادي، إن صـح التعبير، ليشكل زمناً خاصاً، هو الزمن الديني.

فـالزمن العـادي مؤلف، كما يـرى أرسـطو، من آنـات متتالية، كل آنٍ ماضية هي، بالقـوة، مستقبل. أمـا الزمن الإلهي فيتألف من آن واحدة، دائمة الحضور، هي الماضي. فمفـاهيم السنة والشيعـة الدينيـة مفاهيمُ ثـابتـة، لا تقبـل التعديل أو التغيير، تجعل الحركة الدينية واحدة أفقية، ثابتة.

٢ ـ تيار التجديد

أ) التحول/ العقلانية واعادة دور الزمان التاريخي: قام تيار التجديد بوجه تيار التقليـد. وأتباعـه لجأوا إلى العقـل ليبـطلوا غـربـة الانسـان خـارج ذاتـه، إذا صـح التعبـير. والانفصال بينهم وبين التقليديين هو، جوهرياً، في النظرية الدينية.

فالمجددون جعلوا من الله مسألةً عقلية، ففلسفوه، وفلسفوا صفاءه. ودافعوا عن حججهم بالمنطق، غير مكتفين بالايمان. بتعبير آخر، مَنْطَقوا إيمانهم. «فمن خواصّ الحداثة الغوص على المعاني، والانفراد بمذهب مخترع[١٤]». فقد رأوا أنه لما كان الدين أو الوحي هو التاريخ والزمن، فانه يتعارض والثورة. فان بقي على أصله الثابت ماتت الثورات، وبقي الانسان منفصلاً عن ذاته. لذا عَقْلَنوه، وحوّلوه، مفهوماً، إلى دين متحرك، فعّال. فطرحوا قضية إيجاد عالم أفضل من خلال الاسلام وتعاليمه، وبات على الانسان أن يجاهد من أجل الابتكار والانطلاق نحو الأحسن. لم يعد -حلم الانسان كامناً في تراثه الماضي، بل صار في تراثه الحاضر والمستقبل. فالانسان بَطُلَ أن يكون حاضراً في ماضٍ دائم، بل صار يحيا في الزمان باستمرار: صار يحيا في الماضي والحاضر والآتي. لقد فتحوا باب الزمان، وقرّبوا الكائن من زمان العالم (الزمن التاريخي). ولعل عهد نشوب هذه الثورة التحولية هو الحقبة الأموية. يقول أدونيس: «... الحداثة بدأت، سياسياً، بتأسيس الدولة الأموية؛ وبدأت، فكرياً، بحركة التأويل. فقد كانت الدولة الأموية نقطة الاصطدام الأولى بين الدين (العربي) والثقافة غير العربية: الآرامية - السريانية (الشرقية)، من جهة، والبيزنطية - الرومية (الغربية)، من

(١٤) المرجع نفسه، ٢٠٣/٢

جهة ثانية. وفي هذا الاصطدام، واجه الدين العربي، سياسياً ومدنياً، الأسئلة الملحة الأولى التي تتصل بالتمدين أو الحضارة، وكان على ممثليه أن يفسروا الوقائع الجديدة بتأويل القديم تأويلاً ملائماً[15]» وانعكس الأمر، فلم يعد الدين تسامياً يخضع له العقل، بل صار العقل تسامياً يرقى إليه الدين، كما هي الحال عند المعتزلة بخاصة. بمعنى آخر، لم يعد الدين يُخضع الانسان لتجربته الأزلية، بل صار مفهوماً من خلال تجربة الانسان الزمانية ـ اليومية، «فالدين للانسان وليس الانسان للدين[16]»، كما يعبّر أدونيس.

من هنا، تتضح لنا الأمور التالية:

١ً ـ تحوّل البعد الفقهي ـ الدنيوي: فقد صار الفقه مسألة عقلية، يبحث فيها الانسان، ويتفهمها من خلال خبرته في الحياة واتساع عقله. لم يعد هذا البعد، بتعبير آخر، إسقاطاً اجتماعياً ـ فكرياً، بل صار مسألة مطروحة، يُبحث فيها ويُجادلَ. فالله غدا عقلاً ندرك وجوده وصفاته بالعقل.

٢ً ـ تحوُّل مفهوم الزمن: فلم يعد زمن الوحي أساساً فقط، بل صار الزمن التاريخي، هو الآخر، أصلاً يقاس عليه، وتطرح فيه المسائل. لقد تقلّص مفهوم الماضوية، بحيث أصبحت الحاضرية، هي أيضاً، ذات حضور قويّ

---

(١٥) المرجع نفسه، ٩/٣

(١٦) المرجع نفسه، ٢١٣/٢

مهم. وتتجه عمودياً، لا أفقياً. انتقلت المسألة إلى صعيد الجدل بين هـذين الزمنـين، بحيث أن التداخـل بينهما، أو التفاعل، صار جزءاً لا يتجزأ من تركيب الانسان والدين.

٣ً - بَطُلَ الانسان أن يكون تجريداً غيبيّاً، ليصير حضوراً فَعّـالاً، يعتمد عـلى الـذات. فهي التي تفعـل، وهي التي تتـوصـل إلى الكشف عـما استترّ خلف واقـع النفـوس. والـذات، أيضاً، هي من يسـبر غور الأشيـاء، لتصل إلى العلاقة العميقة التي تربطه بالواقع المرئي. انعكست الحال هنا، فلم يعد حضور الانسان وامتلاؤه يقاسان باعادة شحن فاعلية الدين، بل صار بعقلنة هذا الامتلاء. وباضفاء عنصر الذات الانسانية عليه. فالدين لا يمتلئ إلا إذا هيمنت من خلاله ذات الانسان، لأنه يتجه نحوهـا، وهي من صلب موضوعه.

٤ً - التنميط: فالفقيه نمّط بحثه وَمَنْهَجَهُ بالعقل. ولم يعد الايمان أمراً مرتبطاً بـالتجريـد وحسب. لم يعد استحضـاراً للماضي كـما هو، والـوقوف عنـده. لم يعد يـطرح القضايـا بالقبول فحسب، بل صار له نمط تساؤلي: يطرح على نفسه الاسئلة، ويجيب عليهـا لتأصيـل القواعـد الراسخـة للفهم والقبول.

٥ً - المنهجية التساؤلية: هي التي جعلت الانسان يفرض ذاته على المسائل المطروحة. بتعبير آخر، وحّد بينها، لأن هذه

المسائل تتعلق بالذات الانسانية - ترشدها إلى الصراط المستقيم. صار النص والذات جزءاً لا يتجزأ.

هكذا نرى أن الذات حاضرة دائماً في جميع المسائل. ولما كانت كل الحركات الدينية والبحوث الفقهية ذات خلفية سياسية، كان لا بد لهذه الذات من أن تتفاعل معها وفقاً لمحيطها. ونرى هذا جلياً عندما نأخذ بعين الاعتبار الفرق الدينية، والحروب والثورات التي قامت بها، فكرية كانت أم حربية. وفي ما يلي نطرح هذه الفرق على بساط البحث.

ب) - الخوارج: بعد موقعة صفين، انقسم العرب التابعون لعلي إلى قسمين: فمنهم من رأى أن علياً تصرف بالخلافة على هواه، وهي حق للمسلمين، فأساء إليهم، وكفر، فخرجوا عليه وسموا الحرورية، ثم الخوارج. ومنهم من رأى أن علياً لم يخطئ، بل غُدِرَ به، فبقوا معه وشايعوه. هؤلاء هم الشيعة.

آمن الخوارج بأن خلافة علي باطلة، إذ إنه دنّس السلطة التي منحتها له الأمة - مصدر السلطة -، «وهي أمانة مقدسة في عنقه، وذلك حينما قبل التحكيم. ثم إن علياً في قبوله بالحَكَمَيْن غفل أو تغافل عن هذه الحقيقة القائلة أنْ «لا إله إلا الله». فالرئيس الذي لا يستطيع أن يصون الوديعة التي أودعته إياها الأمة هو رئيس كافر. ويستحق حينئذ

المقاتلة، وفي مقاتلته «جهاد». وفعلاً بدأوا بهذا الجهاد[١٧]». وهكذا نفهم كيف علّل الخوارج لجوءهم إلى القوة. ويقول صبحي الصالح في ذلك: «وهنا ظهرت في جيش علي جماعة ناقمة على التحكيم الذي فرضته بالأمس القريب، وصار علي، إمام الهدى، يوصف على ألسنة تلك الخارجة بالكفر، لأنه بزعمهم حكّم الرجال في دين الله[١٨]».

ونظرتهم إلى الدين نظرة شاملة، إلا أنها مغايرة عن نظرة أسلافهم. فلقد كانوا ديمقراطيين، لأنهم قالوا بأن الأمة هي الحرة في اختيار رئيسها؛ وأخذوا بالحديث: «لا فضل لمسلم على أخيه إلا بالتقوى... إنما المؤمنون إخوة». فالامام قد يكون عربياً أو أعجمياً، أبيض أو أسود، لا فرق، طالما هو مسلم، مؤمن، يطبق تعاليم القرآن[١٩]. لقد دعوا إلى ديمقراطية الأمة، وشمولية الاسلام الذي يتخطى، في جوهره، قريش والعرب، ليشمل المسلمين قاطبةً. والعمل بالقرآن هو أساس عقائدهم، لأن القرآن «هو الدستور الوحيد للانسان، وجب اتباعه، والعمل بمقتضاه، والقيام بكل ما يحتّمه على المؤمنين من صلاة، وصوم، وحج،

---

(١٧) ألبير نصري نادر، أهم الفرق الاسلامية السياسية والكلامية، المطبعة الكاثوليكية، ط ١، ص ١١

(١٨) صبحي الصالح، النظم الاسلامية، ص ١٣١

(١٩) شوقي ضيف، العصر الاسلامي، ص ١٨٦

وجهاد، وزكاة[٢٠]». وسُمّوا «الشراة» لأنهم اشتروا الجنة بأرواحهم[٢١]. وقيل إنهم سموا «الحروريّة» لأنهم هاجروا إلى حروراء قرب الكوفة عندما خرجوا على عليّ[٢٢]. ولعلهم سموا نفسهم «خوارج» لأنهم «خرجوا على الجماعة، أو لعلهم الذين سموا أنفسهم كذلك أخذاً من قوله تبارك وتعالى (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله)[٢٣]».

كانت السياسة، كما نلاحظ، مرتبطة بالدين، تنطلق منه عند الخوارج (وسواهم). بيد أن نظريتهم تخالف من سبقهم. فـ «حين نشأت فرقة الخوارج كانت قد استقرت، في ما يتصل بالامامة، ثلاثة مبادئ: مبدأ نصب الامام أو الخليفة، ومبدأ قرشية الخلافة، ومبدأ وجوب طاعة الامام[٢٤]». رفض الخوارج هذه المبادئ، ودعوا إلى الخروج على الامام الجائر والقضاء عليه. وقتلوا عليّاً (طعنه ابن ملجم بخنجر مسموم بعد أن خرج من المسجد). كما رفضوا أن تكون الخلافة محصورة بقريش، لأنها ملك للمسلمين جميعاً - بل أكثر، فللمرأة أيضاً الحق فيها متى كانت صالحة

---

(٢٠) صبحي الصالح، النظم الاسلامية، ص ١٣١
(٢١) شوقي ضيف، العصر الاسلامي، ص ١٨٦
(٢٢) البغدادي، الملل والنحل، دار المشرق، ١٩٧٠، ص ٥٩
(٢٣) شوقي ضيف، العصر الاسلامي، ص ١٨٥
(٢٤) أدونيس، الثابت والمتحول، ١/١٨٤

لها، وكانت المرأة تشارك معهم في الحرب إلى جانب الرجل.

ومنهنّ أم حكيم التي تقول:

أَحْـمِـلُ رَأْسـاً قَـدْ سَئِـمْـتُ حَـمْـلَهْ

وَقَـدْ مَـلَلْتُ دَهْـنَـهُ وغَـسْـلَهْ

أَلاَ فَـتًـى يَـحْـمِـلُ عَـنّـي ثِـقْـلَهْ(٢٥)

وبذلك استبدلوا بنظرية الامامة القرشية مبدأ الجدارة، فلم يعد مقياس الخير والشر في قريش وحدها، بل صار في كل كفؤ ممارس.

بيد أن الخوارج لم يقروا بمبدأ حرية الآخرين. فمن كان إيمانه يتعارض ومبادئهم حاربوه للقضاء عليه. فوحدهم، كما رأوا، تعاليمهم هي الصحيحة. وبصورة عامة، كانت حياتهم ثورة مستمرة.

*** أهم الأحداث التي قام بها الخوارج في حقبة بني أمية ونماذج من شعرهم**: أول ما كان منهم خروجهم على علي في صفين، كما أسلفنا، ونزولهم في حروراء. وأولى مواقعهم هي موقعة النهروان التي نكل بهم فيها علي، ثم قتله ابن ملجم. وعندما تولى معاوية الخلافة، خرجت طائفة منهم في الكوفة، وعلى رأسها المستورد بن عِلِّفَة؛ ولكن قُضي عليها. ثم ثاروا

---

(٢٥) تلاحظ هنا الرغبة في الموت جهاداً عند الخوارج، وهي صفة تلازم شعرهم بعامة.

مرة ثانية بقيادة حيّان بن ظُبيان وفُتِكَ بهم. وكان هذا آخر ظهور لهم في الكوفة.

وعادوا إلى الظهور في البصرة، فبعد مقتل عروة بن أُدَيَّة والبَلْحاء (إحدى نسائهم المقاتلات)، خرج أخو عروة أبو بلال مرادس مع أربعين نفراً إلى الأهواز، واعتصم بآسك، فالتقى جيش يزيد، وكان عدده ألفين، فقهر الجيش، فقال رجل من بني تيم الله بن ثعلبه:

أَأَلْفَا مُؤْمِنٍ مِنْكُمْ زَعَمْتُمْ
وَيَقْتُلُهُمْ بِآسِكَ أَرْبَعُونا
كَذِبْتُمْ، لَيْسَ ذَاكَ كَمَا زَعَمْتُمْ
وَلَكِنَّ الْخَوَارِجَ مُؤْمِنُونا
هُمُ الْفِئَةُ الْقَلِيلَةُ قَدْ عَلِمْتُمْ
عَلى الْفِئَةِ الْكَثِيرَةِ يُنْصَرُونا

«وأرسل إليهم عبيد الله بن زياد جيشاً بقيادة زُرعة بن أسلم العامري، فلم يكن حظه خيراً من حظ الجيش السابق. حتى إذا كانت سنة ٦١ هـ. بعث إليهم عباد بن علقمة، فهزمه وقضى عليه(٢٦)». وتأثر عمران بن حِطّان

(٢٦) شوقي ضيف، العصر الاسلامي، ص ١٨٦ - ١٨٧و: المبرّد، الكامل، مكتبة المعارف، مجهول الطبعة والتاريخ، ٢/١٨٥ - ١٨٦

بموت أبي بلال مرداس فقال:

لَقَدْ زَادَ ٱلْحَيَاةَ إِلَيَّ بُغْضاً
وَحُبّاً لِلْخُرُوجِ أَبُو بِلَالَ

أُحاذِرُ أَنْ أَمُوتَ عَلَى فِراشي
وَأَرْجُو ٱلْمَوْتَ تَحْتَ ذُرَى ٱلْعَوالي

وَلَوْ أَنّي عَلِمْتُ بِأَنَّ حَتْفي
كَحَتْفِ أَبي بِلَالٍ لَمْ أُبالِ

فَمَنْ يَكُ هَمُّهُ الدنيا فَإِنّي
لَهَا وَٱللهِ رَبِّ البَيْتِ قالِ

وعند عودة الجيش إلى البصرة قتل ابن علقمة عبيد بن هلال الخارجي. ثم هجر الخوارج ابن الزبير لأنهم رأوه لا يرى رأيهم. وممن هجره نجدة بن عامر الحنفي، ونافع بن الأزرق، وعبد الله بن الصفّار، وعبد الله بن أباض. وثار في البصرة نافع بن الأزرق بعد فرار عبيد الله بن زياد إلى الشام مع عدد غفير وطرد عماله. وَمَنْ عاضدوا ابن الأزرق سموا الأزارقة(٢٧). ثم خرج إلى البصرة فالتقى جيش مسلم بن عُبَيْس فقتل وهذا الأخير. ثم قتل في إحدى المعارك خليفة نافع. وما لبثوا أن هزموا عند سابور، هزمهم عمر بن عُبَيْد

(٢٧) راجع فيهم: البغدادي، الملل والنحل، ص ٦٣ ـ ٦٤

الله بن معمَّر، منسحبين إلى أصفهان وكرمان. ثم تقدموا إلى العراق بقيادة قطري بن الفجاءة، فصدّهم المهلّب عامل مصعب، حتى قُتل مصعب، فانتقل الأمر إلى بني أمية، فحاربوهم حتى دب الخلاف بينهم وتحاربوا، فخسروا المعركة.

وبعد أن سيطر نجدة على اليمامة والبحرين وعمان، انشقت صفوفه وتحاربت، فوجه الأمويون إلى حربه قوة على رأسها أبو فُديك الذي هزمه.

أما مذهب الصفرية(٢٨)، فقد كان من معتنقيه صالح بن مُسَرِّح الذي هزم جيوش الحجاج هزائم متوالية، ثم قتل في إحدى المعارك. فخلفه شبيب بن يزيد ومعه زوجته غزالة وأمه جهيزة، «ودخل في بعض غاراته مع زوجته غزالة الى الحجاج في الكوفة، فهرع إلى قصره، وتحصّن به منه، وبذلك جلّله بالعار(٢٩)». ثم غرق أثناء إحدى حروبه في نهر دُجَيْل، إلا أن جنوده تابعوا الثورة إلى أن قضي على ثورته نهائياً.

أما الإباضيون(٣٠) فقد خرجوا في زمن عبد الله بن يحيى

---

(٢٨) راجع فيهم: المرجع نفسه، في ٦٧ ـ ٦٨.
(٢٩) شوقي ضيف، العصر الاسلامي، ص ١٨٩
(٣٠) راجع فيهم: البغدادي، الملل والنحل، ص ٧٩ وما بعدها

(طالب الحق)، فاستولى هذا على اليمن وحضرموت، ثم استولى على مكة والمدينة. غير أنه هُزِم في وادي القرى، وفر إلى مكة، فقتل هناك، وأبيدت الثورة. وقد تغنوا بالموت تغنياً حاراً، كقول أحدهم وقد قدمه الحجاج إلى القتل:

مَا رَغْبَةُ ٱلنَّفْسِ فِي ٱلْحَيَاةِ وَإِنْ
عَاشَتْ قَلِيلاً فَٱلْمَوْتُ لاَحِقُهَا
وَأَيْقَنَتْ أَنَّهَا تَعُودُ كَمَا
كَانَ بَرَاهَا بِالأَمْسِ خَالِقُهَا
يُوشِكُ مَنْ فَرَّ مِنْ مَنِيَّتِهِ
فِي بَعْضِ غَرَّاتِهِ يُوافِقُهَا
مَنْ لَمْ يَمُتْ عَبْطَةً يَمُتْ هَرَماً
وَٱلْمَوْتُ كَأْسٌ وَٱلْمَرْءُ ذَائِقُهَا

ومنه قول الطِّرِمَّاح شاعر الصفرية:

وَإِنِّي لَمُقْتَادٌ جَوادِي وَقَاذِفٌ
بِهِ وَبِنَفْسِي ٱلْعَامَ إِحْدَى المَقَاذِفِ
لأَكْسَبُ مَالاً أَوْ أَؤُولَ إِلَى غِنًى
مِنَ ٱللهِ يَكْفِينِي عِداتِ الخَلاَئِقِ
فَيَا رَبِّ، إِنْ حَانَتْ وَفَاتِي فَلاَ تَكُنْ
عَلَى شَرْجَعٍ يُعْلَى بِخُضْرِ المَطَارِفِ

وَلَكِنْ أَجِنْ يومي سَعيداً بِعُصْبَةٍ
يُصَابُونَ في فَجٍّ مِنَ الأَرْضِ خَائفِ
فَوَارِسُ مِنْ شَيْبَانَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ
تُقَى اللهِ نَزَّالُونَ عِنْدَ التَزَاحُفِ
إِذَا فَارَقُوا دُنْيَاهُمُ فَارَقُوا الأَذَى
وَصَارُوا إِلَى مَوْعُودِ مَا فِي المَصَاحِفِ

أما خطبهم وخطباؤهم، فان كتاب البيان والتبيين للجاحظ احتفظ لنا بالعديد من النصوص والأسماء. فمن الخطباء حيّان بن ظبيان ونافع بن الأزرق. وكانوا، في خطبهم يبثون آراءهم في الجهاد والخلافة، والكفر والايمان، والزهد بالدنيا، والتلهف إلى الموت في سبيل الجنة. يقول قطري بن الفجاءة في احدى خطبه: «أما بعد، فاني أحذركم الدنيا فانها حلوة خضرة، حُفّت بالشهوات... مع أن امرأً لم يكن منها في حَبْرة، إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلقَ من سرائها بطنا، إلا منحته من ضرائها ظهرا، ولم تطلَّه غيبة رخاء، إلا هطلت عليه مزنة بلاء، وحريّ إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له خاذلة متنكرة، وإن جانب منها اعذوذب واحلولى أمرّ عليه جانب وأوبى، وإن آتت امرأ من غضارتها ورفاهتها نِعَماً، أرهقته من نوائبها نقما، ولم يمس امرؤ منها في جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف، غرارة غرور ما فيها فانية، فان من عليها لا خير في شيء من زادها إلا

التقوى[٣١]». وثمة خطبة لأبي حمزة الخارجي، مهمة، ذكرها الجاحظ في كتابه[٣٢].

ج) ـ **المرجئة**: وقفوا موقفاً وسطاً بين الفرق المتضاربة. ومعظمهم من الصحابة الذين فضلوا البقاء محايدين على الدخول في رحى المشاحنات السياسية. وتأتي لفظة المرجئة من الارجاء، وهو تأخير الشيء، وعندهم تأخير الحكم على الامور، وتركه لله وحده. فهم لا يحكمون على الفرق الاسلامية. وقد يكون معنى المرجئة مشتقاً من لفظة أرجأ، أي أخّر الشيء واعتبره ثانويًا، لاعتبارهم أن الامام هو الأساس، والظواهر التي يفرضها الشرع ثانوية. وقيل إن اسمهم يشتق من لفظة أرجأ، أي بعث الرجاء، لأنهم يعتبرون كل معصية يقوم بها المؤمن تُغْتَفَر له لأنه مؤمن، فلفظة الارجاء كما يقول البير نصري نادر، «تعني أمهل وأخّر، أي امتنع عن إبداء الرأي في موقف كل الفرق المتنازعة؛ كما أنها تعني: إرجاء الأمر إلى الله، حتى يكون الله هو الذي يحكم بينها. كما أن هذه الكلمة تعني أيضاً أخر الشيء، أعني اعتبره ثانوياً بالنسبة إلى شيء آخر أهم

(٣١) الجاحظ، البيان والتبيين، الشركة اللبنانية للكتاب، ١٩٦٨، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨

(٣٢) المرجع نفسه، ص ٢٧٥

منه[٣٣]». ويقول أدونيس: «ويعني الإرجاء أن الحكم على الانسان أو له، وعلى العالم أو لَهُ، انما هو لله وحده. فلا يجوز للإنسان أن يحكم[٣٤]». وعن لفظة الارجاء التي بمعنى بعث الرجاء يقول أحمد أمين: «وبعضهم يشتق اسمه من أرجأ بمعنى بعث الرجاء لأنهم كانوا يقولون: لا تضرّ مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فهم يؤمّلون كل مؤمن عاصٍ[٣٥]». ويقول صبحي الصالح: «والارجاء على معنيين. . . الثاني إعطاء الرجاء[٣٦]».

يتضح لنا، مما ذكرنا، أن المرجئة كانوا متسامحين مع غيرهم. فقد رأوا أن أساس الايمان هو القول بوحدانية الله، وبأن محمداً رسوله. وهذا الامر أدى عندهم إلى إهمال الجدل العقيم بين المؤمن والكافر، ليهتم الانسان بحياته اليومية. فكل فئة تعطي نفسها الحق وتحكم على سواها بالخطأ، ما أدى إلى هدر دماء كثيرة كان المسلمون بغنًى عنها. وأيد المرجئة أقوالهم بآيات قرآنية من الصعب تأويلها، وبالأحاديث النبوية. لذلك قلّما هوجموا، فالمعرفة بالله وبرسله هي الايمان. والأفعال الجسدية من صلاة وتأدية زكاة وما إليها ليست إيماناً، لأن الانسان بامكانه أن يقوم بهذا بدون

(٣٣) البير نصري نادر، أهم الفرق الاسلامية السياسية والكلامية، ص ٣٤
(٣٤) أدونيس، الثابت والمتحول، ١/١٩٣
(٣٥) احمد أمين، فجر الاسلام، ص ٢٧٩
(٣٦) صبحي الصالح، النظم الاسلامية، ص ١٤٤

أن يكون مؤمناً. ولكن الكفر بالله، بالنسبة اليهم، هو جهل به وعدم معرفة، لأن المؤمن لا يتكبر على الله. وقد بلغ عدد فرق المرجئين اثنتا عشرة فرقةً.

* **أهم الاحداث التي قام بها المرجئة:** لم يكن نشاط المرجئة نشاطاً ثورياً كبيراً، كما كانت الحال مع الشيعة والخوارج. فمنهم من أرجأوا الحكم على معاوية وعثمان وعلي، وتركوه لله، نظراً لما يقول به مذهبهم من تعطيل أحكام الدين، وما يأمر به. وقد أدى ذلك إلى اصطدامهم بالدولة، فخرج رؤبة مع يزيد بن المهلّب على الأمويين. لكن معظم ما جرى بينهم وبين غيرهم كان مناظراتٍ. ومن أبرز أنصار هذا المذهب ثابت بن قُطنة الشاعر، وله قصيدة مشهورة نذكر بعضها:

يَـا هِـنْـدُ فَـاْسْتَـمِعَي لي إنَّ سِيـرَتَـنَـا
أنْ نَـعْـبُـدَ اللهَ لَـمْ نُـشْـرِكْ بِـهِ أَحَـدَا
نُـرْجِـي الأُمُـورَ إذَ كَـانَـتْ مُـشَـبَّـهَـةً
وَنُـصْـدِقُ ٱلقَـوْلَ فِـي مَنْ جَـارَ أو عَـنَـدَا
ألـمُـسْـلِمُـونَ عَـلَى الإسْـلاَمِ كُـلُّهُـمُ
وَٱلمُشْـرِكُـونَ ٱسْتَـوَوْا في دِيـنِهِـمْ قِـدَدَا

وَلاَ أرَى أَنَّ ذَنْبـاً بَـالِـغٌ أَحَـداً
ما ٱلنَّاسُ شُـرْكـاً إذَا مَـا وَحَّـدُوا الصَّمَـدا
لاَ نَـسْـفُـكُ الـدَّمَ إلاَّ أَنْ يُـرَادَ بـنـا
سَفْـكُ الـدِّمـاءِ طَـريقـاً واحِـداً جَـدَدا
مَـنْ يَـتَّـقِ اللهَ فـي ٱلـدُّنـيـا فَـإِنَّ لَـهُ
أَجْـرَ ٱلـتقِيِّ إذا وفَّى الـحسـابَ غَـدَا
وَمَـا قَـضَـى ٱللهُ مِـنْ أَمْـرٍ فَـلَيْسَ لَـهُ
ردٌّ وَمَـا يـقـض مِنْ شَيْءٍ يَكُـنْ رَشَـدا
كُـلُّ الـخـوَارِجِ مُخْطٍ فـي مَقَـالَـتِـهِ
وَلَـوْ تَـعَـبَّـدَ فـي مَـا قَـالَ وَٱجْـتَـهَـدَا
أَمَّـا عَـلِيٌّ وَعُـثْـمَـانُ فَـإِنَّـهُـمَـا
عَبْـدانِ لَـمْ يُـشْـرِكَـا بِـٱللهِ مُـذْ عَـبَـدا
وَكَـانَ بَيْـنَـهُـمـا شَـغْـبٌ وَقَـدْ شَـهِـدَا
شَقَّ العِـصَـا وَبِـغَيْرِ ٱللهِ مـا شَـهِـدَا
يَـجْـزِي عَلِيّـاً وَعُـثْـمَـانـاً بِسَعْـيِهِـمَـا
وَلَـسْـتُ أَدْرِي بِـحَـقٍّ أَيُّـه وَرَدَا
أللهَ يَـعْـلَـمُ مَـاذا يَـحْـضُـرَانِ بِـهِ
وَكُـلُّ عَـبْـدٍ سَـيَـلْقى اللهَ مُـنْـفَـردا(٣٧)

(٣٧) ألبير نصري نادر، أهم الفرق الاسلامية السياسية والكلامية، ص ٣٩

وعندما ظهر جهم بن صفوان، ساند الحارث بن سُرَيج، وقاما بثورة دامية على الأمويين، قُتلا فيها بعد طول صراع. وكانت هاتان الثورتان أهم أحداثهم العسكرية في حقبة بني أمية.

د) ـ المعتزلة والتيارات الممهدة لها:

١ ـ الجبرية أو الجهمية: مؤسس هذا المذهب هو الجعد بن درهم، وكان مولى لبني الحكم. قال الجعد بتعقيم صفات الله عن كل ما يتصل بصفات غير صفات الذات؛ فما هو الله إنما هو بذاته. من هنا لا يمكن أن تكون لله صفات مشابهة لصفات البشر لأنه منزّه، و«ليس كمثله شيء»؛ فالصفة من توليد العقل البشري، وهي منبثقة من المعرفة البشرية. ولما كان الله فوق هذه المعرفة، وخالقاً لها، فلا يمكن أن يوصف بها. ومن هنا تنتفي جميع الصفات البشرية عن الله، وكل ما يمكن أن يفكر به الانسان لا يمكن وصف الله به. ورأى الجعد أن الانسان لا حرية له، فجميع الأعمال التي يقوم بها تُنْسَب إليه وهي ليست منه، كما يقال إن الشمس تضيء لكنها كذلك من قوة الله، لا من قوة ذاتها. وهو أول من قال إن القرآن مخلوق(٣٨).

ثم جاء جهم بن صفوان الترمذي، بعضهم يقول إنه من

(٣٨) الشهرستاني، الملل والنحل، ٨٦/١ (هامش)

سمرقند، وبعضهم من ترمذ. تأثر باستاذه الجعد، فقال بتنزيه الله وبتجريده من الصفاتية، فليس له إلا ذاته. فان اعتبرنا له صفة، فلا بد من أن تكون ثمة آلة لها. وإذا ما كانت لها من آلة، أصبحت مشابهة للحوادث، والله قديم ومحدِث لا يُحْدَث. ولما كان الله لا يشابه الحوادث، فلا يمكن أن يكون القرآن إلا مخلوقاً، لأننا إذا اعتبرناه كلاماً مضافاً إلى الله، كانت إضافته على اعتبار أنه مخلوق له، لا كلام، لأن الكلام صفة للمتكلم، والله منزّه عن الصفات. «وأراد بقوله هذا أن يجعل الله هو المختص بالقِدَم، وأنّ ما سواه، مهما كانت قداسته، لا يعلو إلى مرتبة القِدَم، وأن كل شيء محدث[٣٩]».

ولما نفى الجهم عن الله الصفات، ما عدا الفعل والخلق، فلم يعد ممكناً أن تتصف المخلوقات بصفات الله. فهي لا تفعل ولا تخلق، بل تكون بما قُدِّرَ لها وأجبرت على القيام به. ومن هنا تسمية المذهب بالجبرية. وفكرة الجبر نفسها ترددت كثيراً؛ قال جرير، مثلاً، يمدح عبد الملك بن مروان:

أللهُ طَوَّقَكَ الْخِلَافَةَ وَالْهُدَى
وَاللهُ لَيْسَ لِمَا قَضَى تَبْدِيلُ

والنتيجة هي أن هذا المذهب اعتبر الله لا يُدْرَك بمقاييس

(٣٩) البير نصري نادر، أهم الفرق الاسلامية السياسية والكلامية، ص ٤٢

العقول، لأنه مليء بذاته، ومتسامٍ على البشر[٤٠] كما قال إن الجنة والنار تفنيان[٤١].

٢ ـ **القدرية**: مؤسس هذا المذهب هو غيلان الدمشقي. وقد نفى القدر، على عكس الجبرية، وأضافه إلى الانسان. فالانسان، بنظره، يقرر أعماله لأن الله جعل فيه قوة الارادة. ومن هنا تسمية أتباعه بالقدرية. وقيل سُمّوا كذلك لأنهم بحثوا في قضايا القدر. وكان استاذ هذا المذهب معبد بن خالد الجهني، تتلمذ على يد غيلان.

آمن هذا المذهب باللاصفاتية الإلهية، وبأن القرآن مخلوق. والتقى والخوارج في زعمهم أن الخلافة لا تكون في قريش فقط، بل في المسلمين كلهم. عندما يُجْمِعون على إمام، ولكنه يفترق عن الخوارج بقوله إن الايمان علم وقواعد، لكن العمل لا يدخل فيه. فالانسان حادث. بيد أن الله جعل فيه إرادة ومعرفة ليميز، ومقدرةً لينفذ. من هنا، كان الله يخلق قويم الطريق، والانسان، بارادته، يقرر مسلكيته، وهو يُحاسَب في الآخرة بناء على مسلكيته. فان أخطأ جُعِلَ في النار، وإن أصاب كان ثوابه الجنة. والعمل

---

(٤٠) راجع في هذا: صبحي الصالح، النظم الاسلامية، ص ١٣٧ و: احمد أمين، فجر الاسلام، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ و: البير نصري نادر أهم الفرق الاسلامية السياسية والكلامية، ص ٤١

(٤١) البغدادي، الملل والنحل، ص ١٤٥

الانساني لا يكون كالعمل الالهي. فالكائن البشري يخلق أفعاله. وإن لم تكن ثمة إرادة لما كان من موجب للعقاب والثواب. هكذا خالف القدريون الجهميين في نواة آرائهم، والتقوا معهم في ما سوى ذلك.

وقد رجّح الكثيرون من الناظرين في أمور هاتين الفرقتين، وكذلك في أمور المعتزلة، أنهما تأثرا بالنصارى واليهود(٤٢) في آرائهم، فمعظمهم كان إما مولى، واما غير عربي. وقد ذكر صبحي الصالح أن القدرية استقت آراءَها من رجل نصراني من أهل العراق، هو أبو يونس سَنْسَوَيْهِ الأسواري(٤٣).

٣ ـ المعتزلة/ مسائلها الرئيسة ـ نزعتها العقلانية: رأى أحمد أمين أن لفظة «معتزلة» مشتقة من لفظة «فيروشيم» العبرية(٤٤)، ومعناها: من اعتزل الجماعة فانفصل عنها. ورأى غيره أن جماعة اعتزلت المجتمع لكي تعيش حياة متقشفة، فسموا بذلك: المعتزلة. وبعضهم يرى أنهم سُمّوا بهذا الاسم لأنهم اعتزلوا كل الأقوال المحدثة، بمعنى مخالفتهم أقوال السلف. لكن أشهر ما ذكر من أسباب هذه التسمية هو أنهم سموا كذلك لاعتزال واصل بن عطاء حلقات

---

(٤٢) راجع: صبحي الصالح، النظم الاسلامية، ص ١٤٢، و: أحمد أمين، فجر الاسلام، ص ٢٨٦، و: البير نصري نادر، أهم الفرق الاسلامية السياسية والكلامية، ص ٤٤

(٤٣) صبحي الصالح، النظم الاسلامية، ص ١٤٢

(٤٤) المرجع نفسه ص ١٥٠

الحسن البصري. ذكر ذلك الشهرستاني، قال: «دخل واحد على الحسن البصري فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر. والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج. وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر. والكبيرة عندهم لا تضر مع الايمان، بل العمل - على مذهبهم - ليس ركناً من الايمان. ولا تضر مع الايمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة. فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟

فتفكر الحسن في ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً، ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين: لا مؤمن ولا كافر. ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من أسطوانات المجسد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن. فقال الحسن: اعتزل عنا واصل. فسمي هو وأصحابه معتزلة[٤٥].

ذكرنا أن فرقاً نشأت، راحت تفلسف الأمور الدينية، أو تنظر اليها نظرة تختلف عن النظرة التقليدية. فعُرِضت مسائل عديدة، حاول المعتزلة أن يشرحوها على ضوء العقل. فطرحوا تعاليمهم ومبادئهم متأثرين بجهم بن صفوان، وبتيار القدرية. فالجهمية والقدرية كانتا في أساس نشوء المعتزلة. وأثاروا قضية القدر، وخلق القرآن، وصفات الله، وغيرها.

(٤٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ٤٨/١

ووضعوا مذهباً خاصاً يعمل العقل في القضايا المطروحة، ولا يكتفي بالايمان. من هنا كان لهم تأثير كبير في مجتمعهم، آخذين عن الحسن البصري بعضاً من أمور علم الكلام، مستنبطين أخرى، حتى صارت لهم عقيدة تتلخص بمبادئ ستة اساسية، هي: التوحيد، ونفي الصفات، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان واصل بن عطاء أول منظّر لهذا الموقف العقلاني. وقيل إن نظريات مسيحية اسهمت في دعمه[٤٦]. ومن العلماء من حاول أن يعدد تلك الأصول على غير هذه الصورة، كابن حزم الذي يجعلها: القول بخلق القرآن، ونفي رؤية السعداء لله يوم القيامة، ونفي القدر، والقول بالمنزلة، ونفي الصفات[٤٧]. وليس من الغريب أن يقال إن فيهم - أو على الأقل في بعض فرقهم - تأثراً بالمسيحية. فالحائطية، مثلاً، تقول إن المسيح هو الذي يحاسب البشر في الآخرة، وإنه خلق آدم على صورته[٤٨]، وقالوا بألوهيته[٤٩]. وقاسم الدمشقي كان يزعم أن «حروف قول القائل: لا اله إلا الله،

---

(٤٦) صبحي الصالح، النظم الاسلامية، ص ١٥٥

(٤٧) المرجع نفسه، ص ١٥٦

(٤٨) البغدادي، الملل والنحل، ص ١١٥

(٤٩) المرجع نفسه، ص ١١٧

هي حروف من قال: لا اله إلا المسيح (٥٠). على كل حال، سنعرض لآراء المعتزلة الأساسية في مذهبهم.

١ً - التوحيد: وهو من أهم مبادئهم. قالوا أنْ لا إله الا الله، وحده لا شريك له. واعتمدوا في ذلك على آيات كثيرة تدل على التنـزيه، وعلى التجسيم. وقد آمن غيرهم، في أيامهم، بكلام هذه الآيات الحرفي، ولم يحاولوا أن يتأولوها عقلياً، معتبرين أنهم يجب ألاّ يعرفوه. في حين أن المعتزلة ناقشوه عقلياً، وحاولوا تفسيره، فقالوا بالله منزّهاً عن كل خواص المواد، وهكذا صار الله سلبياً بالنسبة إلى صفات البشر والموجودات بعامة. فلما نفوا عنه الجسمانية، نفوا عنه الجهة، وبدون جهة، لا يراه الناس. ولكي تكون ثمة من رؤية، لا بد من شروط، كاللون والنور وغيرهما، ولما كان الله منزهاً عن كل هذا، استحال أن يراه أحد. وهذا معنى الآية: «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار».

٢ً - نفي الصفات: ولكي يتم لهم ترسيخ معنى التوحيد، نفوا الصفات عن الله. فلما كان الله واحداً أحداً، وجب ألا يكون مركّباً، لأن المركب يتحقق من أمور كثيرة، ومِنْ تَحَقُّقِ هذه الأمور الكثيرة، فكل جزء يفتقر إلى غيره. والله لا يفتقر إلى أحد. فهو بسيط. والله لا يتصف بصفات البشر، لأن البشر لّما كانوا محدثين، كانت صفاتهم محدثة. والله قديم،

(٥٠) المرجع نفسه، ص ١٣٦

فلا يمكن أن يتصف بصفات الحوادث. وكان القرآن قد ذكر لله أوصافاً «تنحصر في سبع: العلم، والحياة، والقدرة، والارادة، والسمع، والبصر، والكلام[٥١]». فاعتبر المعتزلة أن الله وصفاته شيء واحد، «لأنه لو كان عالماً بعلم زائد على ذاته، وحياة زائدة على ذاته كما هي الحال في الانسان، للزم أن يكون هناك صفة وموصوف، وحامل ومحمول، وهذه هي حالة الاجسام، والله منزّه عن الجسمية. ولو قلنا إن كل صفة قائمة بنفسها لتعددت القدماء، وبعبارة أخرى لتعددت الآلهة[٥٢]».

أدى هذا بالمعتزلة إلى التوقف عند أمر مهم، فطرحوا السؤال التالي: إذا كانت لله قدرة على أن يوجد ما كان مُعْدَمًا، وأن يُعْدِم ما كان موجوداً، فكيف تباشر القدرة في شيء إذا كانت قدرة لا تتغير؟ فأجابوا على ذلك بقولهم: زعم بعضهم أن علمنا بأن أحداً سيقدم، مثلاً، هو غير علمنا بأنه قد قدم فعلاً. وهذا يعود إلى خاصية علم الانسان المتجدد. أما الله فعلمه قديم، والقديم لا يتغير. من هنا، فعلمه تام، لا يفرّق بين مقدَّر وكائن. فالحال عنده واحدة. وقال غيرهم إن الله عليم بذاته. فهو، نظراً إلى الآنات الزمانية، خالق لها، وبذا عالم بما كان وما هو كائن وما سوف يكون.

(٥١) أحمد أمين، ضحى الاسلام، دار الكتاب العربي، ط ١٠، ٣/٢٩
(٥٢) الموضع نفسه.

فالاختلاف راجع، ههنا، إلى الاشيـاء نفسها، لا إلى علم الله. وقـال آخرون إن اختـلاف العلم مـرده إلى اختـلاف الامكنة والأزمنة. فإذا مرت نملة على صفحة ملوّنة، حسبت ما واجه حدقتها من الالوان مخلوقاً من عدم في اللحظة التي رأتها فيها، وفي المكان الذي رأتها فيه. ولكن هذه الالوان مـوجودة بـالفعل، وإن لم تكن النملة قـد رأتها من قبـل. فالانسان المشرف على الالوان يراها دفعة واحدة. ونسبة هذا الامر إلى الله كنسبة الملوِّن إلى النملة، فالله لما تجرّد علمه على الزمان والمكان، كان واحداً بالنسبة إليه وبذاته، لا كما يظنه الانسان.

وانطلاقاً من هذا كله بُحِثَتْ قضية خلق القرآن بوساطة الأدلة العقلية. فقد قال المعتزلة إن الله وصفاته لا يتجزأان ولا يتغيران، فاذا ما اعتبرنا أن القرآن كلام الله على أنه صفة من صفاته، لكان القرآن واحداً، لا يتغير. ثم إن نحن نظرنا فيه، بدت لنا جلياً طريقة انتقال آياته من الخبر إلى الانشاء، ومن الأمر إلى النهي والاستفهام، الخ . . . ولما كان الله لا يتغير و صفاته، فمن المحال أن يكون القرآن صفة له، بل مخلوق. ومن جهة أخرى، إذا اعتبرناه أزلياً، وقعنا في محال آخر. ذلك أن الأمر لا بد من أن يكون على مأمور. فكلام مثل «أقيموا الصلاة» لا يصدر إلا إذا كان ثمة من يقيمها. والانسان حادث وليس بـأزلي. من هنا، فـإن القرآن ليس

أزلياً، بل مخلوق. والدليل على هذا بيّن من حيث اللغة، إذ يقول الله، مثلاً: «وإذ قال ربك للملائكة». و«إذ» ظرف زمان للماضي، ولا ماضي بالنسبة إلى الأزل(٥٣).

وقد عارض السلفيون المعتزلة لقولهم بخلق القرآن وصفة الكلام، معتبرين أن الله خصّ نفسه بصفات ليس علينا أن نتأولها، بل أن نأخذها كما جاءت، تاركين معانيها لله وحده (وهذا رأي ابي الحسن الأشعري). كما اعتبر بعض الحنابلة أن القرآن قديم لأنه كلام الله، والله قديم، فلا تكون له صفة كلامية إلا ما هو قديم. وبالغوا حتى إنهم قالوا إن غلاف المصحف هو الآخر قديم، فما بينه مثله.

خلاصة القول في هذا كله أن المعتزلة ردّوا على قضية قِدَم القرآن باعتباره حادثاً. وكانوا أمام نزاع قام بين الفرق الاسلامية، ينحصر في نقطتين:

١ً - «أن كلام الله صفة له، وكل ما هو صفة له قديم. فكلام الله قديم.

٢ً - أن القرآن كلام الله مركب من حروف مترتبة، متعاقبة في الوجود، وكل ما هو كذلك حادث ومخلوق(٥٤)».

وأخذ المعتزلة بالموقف الثاني، لأنهم رأوا الله موحَّد الذات

(٥٣) المرجع نفسه، ٣/٣٥
(٥٤) المرجع نفسه، ٣/٥٣

والصفات، منزَّه عن الجسمانية، خالق للحوادث، ومنها القرآن.

٣ً ـ العدل: هذه القضية تتعلق بالجانب الأخلاقي من فحوى القرآن. فقد أشار إلى أن الله جعل الانسان حراً، مختاراً. وأفصح النبي عن هذا. أما المعتزلة فعالجوا هذه القضية بطريقة خاصة، وطرحوا مسألة العدل من خلال مسائل ثلاثٍ:

١ً ـ مَنْ كان حكيماً جاءت أغراضه لغرض حكيم. وهو، بأفعاله، إما أن يكون منتفعاً، وإما أن ينفع غيره. ولما كان الله منزهاً عن الانتفاع، كانت أفعاله من أجل منفعة الآخرين.

٢ً ـ من هنا انبثقت نظرية الصلاح والأصلح، والحسن والقبيح. فلما كان الله يقصد نفع غيره بأفعاله، فهو يقصد الصلاح، والله مطلق؛ فهو نفع مطلق، وصلاحه هو الأصلح.

٣ً ـ أما بالنسبة إلى الحسن والقبيح، فالأمور حسنة أو قبيحة بالنسبة إلى ذاتها، أو في ـ ذاتها، كالكذب والصدق. وهذه الصفة هي التي تجعلنا نحكم عليها. والشرع في أمره ونهيه يتبع ما في هذه الأمور من صفات ذاتية، وهو مُخبر عنها، لا مثبت عليها. ومن خلال هذا، نرى أن الناس قبل ظهور

هذه الشرائع تحاكموا إلى العقل؛ فالعقلاء استقبحوا القبيح، واستحسنوا الحسن لصفاتها الذاتية. والأنبياء، لولا هذه الصفات، لعجزوا عن إرشاد الناس. وكذلك الفقهاء، لولاها لما امكنهم أن يعملوا العقل في المسائل التي لم يرد فيها نص. لذا قالوا إن الله أراد الخير؛ فأثاروا مسألة إرادة الله على النحو التالي: نحن نرى أن مُريد الشر شرير، ومريد الخير خيّر، ومريد الجور جائر. الخ... فاذا كان الله قد أراد كل هذا، لاشتركت إرادة الله في الخير والشر، فوُصف الموصوف بهذه الصفات، وهذا محال على الله. فلو أراد الكفر لما نهى عنه.

ثم انتقلوا إلى قضية خلق الأفعال. فرأى معظمهم أن أفعال الانسان من خلقه هو؛ أما الأفعال الاضطرارية فليست كذلك. وإن لم يكن الانسان قادراً على خلق أفعاله، لما قيل له في كلام الله: «إفعل هذا ولا تفعل ذاك». فالمعتزلة، إذاً، قرروا حرية الانسان.

٤ ـ ٥) الوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين: آمن المعتزلة بأن الايمان لا يكون بالقلب فحسب، بل في الممارسة واداء المتوجبات أيضاً. فكل عمل إيمان، وكلما ازداد الانسان إيماناً، ازداد خيراً؛ وكلما عصا نقص إيمانه. فلما أمرهم الدين بأن يقوموا بالواجبات وكلفهم بها، كان العبد قادراً على خلق أفعاله، وإلا لما كلّفه الدين.

واعتمدوا على الآيات أولاً، ثم على الآراء الفلسفية، وصرّحوا بـ«أنَّ كل من يقول: إن الله يحاسب الناس على ما لم يعملوه إما إثابة واما معاقبة، فهو كافر من حيث لا يدري، لأنه ينسب إلى الله شيئاً نفاه عن ذاته: هو الظلم والجور[٥٥]». فالله لا يظلم، بل هو الانسان يقوم بأعماله حراً، فان أساء عوقب، وان أحسين أُثيب.

وفكرة المنزلة بين المنزلتين كانت إسلامية دقيقة. ردّها بعض المستشرقين إلى نظرية التوسط الفكري عند بعض فلاسفة اليونان[٥٦]. واعتبر العرب أن «خير الأمور أوسطها»، على حد تعبير الحسن البصري. أما المعتزلة، فبعد أن عرّفوا الايمان مثلما ذكرنا، قسموا المعاصي قسمين: كبيرة وصغيرة. فالكبيرة ما جاء فيها وعيد؛ والصغيرة ما لم يجئ فيها. «ثم قالوا إن الكبائر بعضها يصل من كبره إلى حد الكفر؛ فمن شبه الله بخلقه، أو جوّره في حكمه، أو كذبه في خبره، فقد كفر. وهناك كبائر أقل منها منزلة، وهذه الكبائر يسمى مرتكبها فاسقاً، والفسق منزلة بين المنزلتين: لا كفر ولا إيمان؛ فالفاسق ليس مؤمناً ولا كافراً: بل هو في منزلة بين المنزلتين[٥٧]». والثواب والعقاب مسألتان متعلقتان بالكبائر،

---

(٥٥) صبحي الصالح، النظم الاسلامية، ص ١٦٤

(٥٦) بخاصة ارسطو في كتابه «تهذيب الأخلاق»، أو «الأخلاق إلى نيكوماخوس».

(٥٧) أحمد أمين، ضحى الاسلام، ٦٣/٣

فصاحب الكبيرة ينال العقاب، والمطيع يثاب، هكذا قال الله، وهكذا سيكون. ورأى بعض من خالف هذا أن الله غفور رحيم، يصفح عمّن يتوب. فان ارتكب مؤمن كبيرة لا يُخَلَّد في النار، بل يحاسَب على كبيرته، ويثاب على إيمانه، وقال عدد كبير من المعتزلة بالمعادلة بين عدد الكبائر والطاعات، وذهب غيرهم إلى أن الكبيرة الواحدة تحبط جميع الطاعات.

٦) **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: ورد في القرآن: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر». وعملاً بهذه الآية أثيرت القضية المطروحة.

فمن المسلمين من قال إن هذا يكون بالقلب واللسان، لا باليد والسيف. ومنهم من قال إن سَلَّ السيوف في هذه القضية واجب إذا استعصت غيرها من الوسائل. وكان المعتزلة من القائلين بذلك. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون أولاً بالقلب، ثم باللسان، ثم باليد، ثم بالسيف. وهذه قيمة اسلامية مهمة، لا مفر منها، بل يقاس الناس بها، حسنهم وسيئهم. وقد أعطى هذا الموقف المعتزلة دوراً مهماً في الدولة، وقوّاهم بين الناس، حتى لنجد واصل بن عطاء يقول عن كفر بشار بن برد: «أما لهذا الأعمى، أما لهذا المشنَّف المكنى بأبي معاذ من يقتله؛ أما والله لو أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست إليه من يبعج بطنه في

جوف منزله أو في حفله[٥٨]». وعمل هو وعمرو بن عبيد على نفيه من البصرة، فلم يعد اليها نهائياً إلا بعد وفاتها.

وكان المعتزلة طبقات وفئات، وصل عددها إلى اثنتي عشرة. وقد ردّها الغزالي إلى طبقات ثلاث: الأولى هي طبقة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وتلاميذهما. والثانية طبقة ابراهيم النظام وابي هذيل. والثالثة متأخرة هي طبقة أبي علي الجبائي[٥٩].

وكان موقف المعتزلة من الأمويين موقف كراهية، وإن لم يثوروا. ولعلهم ورثوا حقدهم لهم عن شيوخهم. وكذلك كرههم الأمويون لقولهم بالحرية، لأن الأمويين يسهل عليهم حكم الشعب متى آمن بالجبر، وبالقضاء والقدر. فالمعتزلة نقموا على الوليد لأنه كان ماجناً، وَلوعاً بالشراب. وقد نصرهم يزيد بن الوليد لأنه كان دَيِّناً. يقول المسعودي في ذلك: «وكان يزيد يذهب إلى قول ما يذهبون إليه في الأصول الخمسة[٦٠]». وفضلوه على عمر بن العزيز بفعل عصبية مذهبهم.

---

(٥٨) الاصفهاني، الأغاني، دار صعب (عن طبعة بولاق)، مجهول التاريخ، ٢٤/٣

(٥٩) البير نصري نادر، أهم الفرق الاسلامية السياسية والكلامية، ص ٤٨

(٦٠) المسعودي، مروج الذهب، دار الاندلس، ط ٣، ١٩٧٨، ٢٢١/٣

هكذا كانت حركة الاعتزال «تنظيراً عقلياً للدين[٦١]»، وكانوا ممهدين لظهور الفلسفة العربية. لقد جعلوا من الدين تساؤلاً، لا قبولاً وحسب. فالله صار «مفهوماً عقلانياً[٦٢]»، وبذلك اقترب من الانسان، وكذلك مفهوما الكون والنبوة. لهذا يمكننا القول إن الحركة الاعتزالية ثورة محورها العقل. وجعلت هذه الحركة تنزيه الأصل واجباً وقاعدة للانطلاق، ففصلوه عن الكـون، وكـانـوا أول من يـفعـل هـذا. إنه يديره من الخارج، ولكنه الحقيقة الأساسية. فقديماً، عبّر الخبر عن معرفة مطلقة، لا يخترقها العقل. ومـع المعتزلـة تغيرت الحال، فصار الخبر يحثّ العقل على البحث، وتغيرت قاعدة اليقين: لم يعد هذا الخبر هو الحدّ الأقصى، بل العقل. ومن هنا أكدوا على الحريـة، فاعتـبروا الانسان قـادراً على إخضاع الكون بها. فالحقيقي قائم بذاته، يصل إليه الانسان بعقله، وبه يسبر أسرار الكون وخفاياه. وإمّا أعطينا للعقل المقام الأول، وجب علينا أن نحارب كل ما يعارضه سياسياً أو فكرياً أو دينياً. وهذا يعني تحطيم السلفية. على كل حال، لم يبلغ تيار الاعتزال ذروته إلا في العصر العباسي، وتحديداً مع الخلفاء الثلاثة: المأمون والمتوكل والواثق حيث صار المذهب الرسمي للدولة العباسية حتى وجه إليه المتوكل ضربة قاضية.

---

(٦١) أدونيس، الثابت والمتحول، ٢/١٥٠.

(٦٢) الموضع نفسه.

٣ ـ خلاصة عامة/مقارنة:

بعد هذا العرض نستخلص النتائج التالية في خواصّ تياري التقليد والتجديد:

١ ـ التقليد:

١ً ـ عامل الزمن المزدوج: زمن الوحي وزمن التاريخ، أو الزمن التاريخي والزمن ما فوق التاريخي. الأول مكوّن من آنٍ واحدة، مطلقة، متكررة الحضور، والثاني من آنات متتالية، من ماضٍ وحاضر وآتٍ.

٢ً ـ القول بقدم القرآن، أي بأنه غير مخلوق.

٣ً ـ عامل الاتباعية الكاملة في فهم النص والوحي.

٤ً ـ إلغاء العقل والرأي.

٥ً ـ الايمان بالجبرية، أي نفي مقدرة الخلق والعمل عن الانسان، إلا بما قال الله.

٦ً ـ جعل الانسان في غير ذاته.

٧ً ـ سيطرة البعد الديني، وتجريد الانسان والعالم على النحو الذي أشرنا إليه.

٨ً ـ عدم الفصل بين الله والعالم.

٩ً ـ الماضوية المسيطرة على الزمن وطريقة فهم الدين.

١٠ً ـ الأصل المطلق الواحد الثابت.

٢ - **التجديد**:

١ً - تحطيم البعد الزماني الثابت، والغاء الماضوية المهيمنة على الانسان.

٢ً - إرجاع الانسان إلى ذاته، وتقليص المثالية الغيبية التي كان يحيا فيها.

٣ً - عقلنة الدين والله، واختراق البعد الفقهي - الديني، وابداء الرأي في المسائل والنصوص.

٤ً - قضية التساؤل التي طرحت، بحيث لم يعد الدين قبولاً بحتًا، بل انتقل إلى مرحلة التساؤل وايجاد الاجـابات بالحجج والبراهين المنطقية.

٥ً - إعادة المقدرة إلى الانسان، وابعاده عن السلفية.

٦ً - القول بخلق القرآن استناداً إلى المنطق العقلي.

٧ً - الثورة الدينية الخطيرة التي قام بها المعتزلة، بحيث بطل النقل أن يكون محور المعرفة، ليصير العقل محورها.

[illegible]
بعد هذا العرض، نستخلص النتائج التالية في خواص [illegible]

٤ ـ إهمال الزمن الأرضي، [illegible] الزمن التاريخي، [illegible] التاريخي والزمن ما فوق التاريخي، الأول مكون من آنات واحدة، منفصلة، محدودة الحدوث، والثاني من آنات متتالية [illegible]

[illegible] ـ القول بقدم القرآن أي بأنه غير مخلوق.

[illegible] في فهم [illegible] إلغاء العقل والرأي.

[illegible] ـ الإيمان بالجبرية، أي نفي مقدرة الخلق والفعل عن الإنسان، إلا بما شاء الله.

٦ ـ جعل الإنسان في غير ذاته.

٧ ـ سيطرة البعد الديني، وتجريد الإنسان والعقل على النحو الذي أشرنا إليه.

٨ ـ عدم الفصل بين الله والعالم.

٩ ـ الماضوية المسيطرة على الزمن وطريقة فهم الدين.

١٠ ـ الأصل المطلق الواحد الثابت.

اركان الدين الاسلامي

٥ ـ الايمان بالجبرية، اي نفي مقدرة الخلق والفعل عن الانسانية إلا بما شاء الله.

٦ ـ حلول الانسان في غير ذاته.

٧ ـ سيطرة البعد الديني، وتجريد الانسان والعقل على النحو الذي أشرنا إليه.

٨ ـ عدم الفصل بين الله والعالم.

٩ ـ الماضوية المسيطرة على الزمن وطريقة فهم الدين.

١٠ ـ الأصل المطلق الواحد الثابت.

مقدمة

لم يكن العربي قبل الاسلام، عموماً، ليلجأ إلى التمسك بحياة ماورائية، يستلهم منها معاني وجوده، ويدرس بها سببية الأفعال والأشياء، والحركة الداخلية التي تحرك الطبيعة. بتعبير آخر، لم يتطرق إلى الله على أنه خالق، ويتمسك به كخشبة خلاص تعينه على الحياة، وتكون مصدرها، وتمكنه من مواجهة العدم المتربص له في الفيافي والمفازات. . .[1].

كان العربي، قديماً، أسير الوجود. هكذا عانى حياته، وعاشها بأعصابه، إذا صح التعبير. وعلى الرغم من أن اليهودية والنصرانية عُرِفتا في العصر الجاهلي، يبد أن طبيعة

(١) كانت الديانة الأكثر انتشاراً في بلاد العرب في الجاهلية الوثنية، وكان العربي عموماً قليل الايمان.

النفسية العربية آنذاك، في تلك البيئة الصعبة، لم تكن لتصل إلى المعاني الروحية السامية التي عرفتها عقائد هاتين الديانتين[٢]. فالعربي عاش متعصباً، قبيلته أساس وجوده، بالغزو يحيا، ويحافظ على بقائه. وكان من البدهي الا تُقْبَل المبادئ المسيحية في تلك البيئة (البدوية بصورة خاصة)، لأنها تدعو المؤمن إلى أن يتخلى ويعطي، والبدويّ لا يكاد يملك ما يعطيه! وربما كان معظم من انتمى إلى هذا الدين بفعل انتماء قبيلته إليه، أكثر مما هو بفعل إيمانه به، إلا القلة القليلة[٣].

وكانت الصحراء امتداداً كبيراً ذا وجه واحد، أجبر الانسان، إذ ذاك، على أن يكون علوقاً بالارض، ماديّاً في المقام الأول، يحيا في الحاضر فحسب. فهو أسير الحياة، وأسير القوة التي تشده اليها لكي تستمر حياته. هكذا اتجه العربي نحو الدنيا، فكللها بهالة من القدسية. كان أسير الموت، يراه في كل مكان. قال زهير:

رأيتُ المَنَايا خَبْطَ عَشْواءَ مَنْ تُصِبْ
تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

(٢) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، ط ٨، ص ٨٩ حتى ١٠٣
(٣) كأمية بن ابي الصلت الذي عزيت إليه قصة روت أنه بشر بمريم وولادة المسيح: رودلف فلهلم، صلة القرآن باليهوديّة والمسيحية، تعريب: عصام الدين حنفي ناصف، دار الطليعة، ١٩٧٤، ص ١١٢

وقال طرفة:

أَرَى ٱلْـعَـيْشَ كَـنْـزاً نَـاقِـصـاً كُـلَّ لَـيْـلَةٍ
وَمَـا تُـنْـقِصُ الأَيَّـامُ وَٱلـدَّهْـرُ يَـنْـفَـدِ

ونتيجة لهذا حاول أن يهرب منه باللجوء إلى الدنيا، وما تقدمه له من وسائل ومُتَع، فدأب على التملي منها طالما هو يستطيع. ولقد عبّر طرفة عن هذا بقوله:

أَلا أَيُّهَـذا ٱلـلاَّئـمـي أَشْهَـدَ الـوَغَـى
وأَنْ أَحْضُـرَ ٱللَّذاتِ هَـلْ أَنْـتَ مُخْـلِدِيْ؟
فَإِنْ كُـنْـتَ لاَ تَـسْـطِـيـعُ دَفْـعَ مَـنِـيَّـتـي
فَـدَعْـنِي أُبَـادِرْهَـا بِـمَـا مَـلَكَـتْ يَـدِي

لقد اتجه العربي نحو الأرض لأنه ما عرف سواها إلهاً، وخضع للخصب ومجّده خضوعاً انعكس في الشعر، بل في أسماء الناس(٤)، وانعكس، بصورة خاصة في صورة المرأة التي كانت واحدة تقريباً في النصوص الشعرية الجاهلية(٥). ذلك أن الجاهلي رأى نفسه أمام أمرين: الأول هو الرضوخ للطبيعة القاسية الذي يشده إلى التمسك بأرضه ـ بالصحراء

---

(٤) راجع في هذا: علي البطل، الصورة في الشعر العربي، دار الاندلس، ط ٣، ١٩٨٣، ص ٤٣ وما بعدها.
(٥) راجع فيها: المرجع نفسه، ص ٥٥ وما بعدها.

وما تقدمه له من استمرارية للبقاء. والثاني هو الحياة التي كان عليه أن يغتصبها اغتصاباً للانتصار على الموت، وإن جزئيّاً.

وحياته حياة دائمة السيلان، قائمة على الصيرورة المتواصلة التي بها يتأمن وجود الاشياء، وبقاء النوع. فكان الحلّ والترحال. بحثاً عن الماء والكلأ، وبحثاً عن وسيلة البقاء، هدفه الشاغل. تلك كانت هيئة حياته: قريبة - بعيدة كالسراب، واسعة - محدودة كالبيداء، جافة - سريعة الانهيار كالرمال. تغنّى بها وحاول أن يفتتحها وأن يثأر لنفسه من وجوده الماحق، وأن يخترق محيطه القاسي وتلك الغربة الدائمة بالبطولة والشيم والعصبية القبلية. كان الجاهلي أسير الزمن، يبحث عن وجه ثابت له في مفازات الغربة المتواصلة، وفيافي البقاء الثقيل.

الاسلام/النبوة

جاء الاسلام، فكان تغييراً جذرياً في حياة الفرد، وكان من أول أهدافه تخليص البشر من حياتهم الضاغطة، ومن معاناة وجودهم الثقيلة المرة، عن طريق ربطهم بالخلود - بما وراء الحياة. وأضفى بُعداً جديداً، ومسلكاً مغايراً على المعتَقَد الانساني: فقد كسر التمسك بالدنيا، واعتبرها «لعباً ولهواً»، وأنهى الغربة التي عانى منها الفرد عبء البقاء، وحاول أن

يلغي العصبية القبلية ليصهر القبائل في أمة اسلامية واحدة تجمعها عصبية دينية(٦). وقد ذكر ابن خلدون «أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم(٧)». فالعرب تحولت عصبيتهم القبلية إلى عصبية دينية مع الإسلام، التفوا حولها، واستمدوا منها بقاءهم. ذلك أن الدعوة الدينية تزيد من أصل الدولة ومن ترسيخها. فمعظم الدول العظيمة كانت تتصف بطابع الدين، من نبوة، وآلهة، وغيرها. ولهذا السبب لم يحصل الملك للعرب إلا بصبغة دينية وبنبوة(٨). ومن هنا كانت النبوة زمناً جديداً يبدأ به الزمان، ويتعرف به الانسان إلى الماضي القديم، وكانت فتحاً ميتافيزيقياً للعالم وللمحيط القاسي. وكان النبي صوتَ الله في الارض، صهر الحروف في كتاب منزل، هو ذروة القراءات من حيث معناه: القرآن، يطبق مبدأ العدل والمساواة(٩). وسرعان ما ظهر هذا التبدل العميق

(٦) كانت يثرب «صورة لمجتمع منظم رئسه النبي، قانونه المطلق والثابت هو القرآن». Edmond Rabbat, Mahomet- Prophète arabe et fondateur d'état, Publication de l'université libanaise, Beyrouth, 1981, P 109.

(٧) ابن خلدون، المقدمة، دار احياء التراث العربي، ط٤، ص ١٥٩

(٨) المرجع نفسه، الفصل ٢٧ من الفصل ٢، ص ١٥١؛ والفصل ٤ من الفصل ٣، ص ١٥٧؛ والفصل ٦ من الفصل ٣، ص ١٥٩.

(٩) خلق النبي بين سكان المدينة شعوراً بالأخوة والوحدة في إطار أمة موحدة حيث الكل متساوٍ (Op. cit.p103).

في الحياة العربية، إذ راح المسلمون يفتتحون العالم، غارزين فيه راية دينهم.

وباتت على المسلم واجبات عديدة، وأمور سوف نأتي على ذكرها فيما يلي بدون إطالة.

الاسلام/المقومات:

تنقسم مقومات الاسلام إلى قسمين: عقائد وأعمال. أما العقائد فهي فروض الايمان عند المسلمين وقواعده. وأما الاعمال فهي الواجبات المتحتّمة على المسلم لممارسة إيمانه.

١ً - آمن المسلمون بأن «لا اله الا الله». فالتوحيد أول الأمور وأهمها. وهنا يظهر جوهر البعد الميتافيزيقي الذي شد العربي والمسلم إلى كونيّة غيبيّة، مطلقة. فالله ليس إله قبيلة، ولا إله أمة واحدة، بل إله الوجود كله، وهو المطلق. والانسان مخلوق له، وكذلك أسرار الكون ومظاهره. هذا المطلق الذي أوجب الاسلامُ أن يتجه الانسان إليه باستمرار، ويؤمن به، نقل حياة العربي من حياة مادية إلى أخرى روحية، شُرّعت له فيها أمور دنيوية وأخرى سماوية، عليه أن يأخذ بها طالما أراد أن يسلك الصراط المستقيم، ويدخل الجنة. والايمان بالله تسليم به، واستسلام لمشيئته في إطار مفهوم القضاء والقدر، على اعتبار أن كل ما هو كائن إنما كينونته من الله وبه، فالاسلام هو «دين الخضوع لارادة

الله[١٠]». من هنا نلاحظ أن الشعور بالقناعة عظيم الأثر في المجتمعات الاسلامية. ولذا فان قضية الانتحار تكاد تنعدم فيها.

والايمان بالله والتسليم به يعني التسليم بصفاته التي ذكرها القرآن، وهي تسعة وتسعون اسماً، قال عنها النبي: «إن لله تسعة وتسعين اسماً: مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة[١١]». من هذه الاسماء: الرحمن والرحيم والحق والرقيب والحكيم والقوي والعزيز والبصير والسميع والغفور والقهار وذو الجلال وغيرها. . . ومن التسليم لله استمد الاسلام اسمه. فمن «الظاهر أن امتحان ابراهيم يوم أمره الله أن يقدم ابنه قرباناً ـ وهي قصة التسليم لأمر الله[١٢] ـ هي الفكرة التي هيأت للدين الجديد اسمه. وقد عبّر الاسلام عن خضوع ابراهيم بكلمة أسلم[١٣]».

ووحدانية الله قد تكون سبباً في توحيد العرب، لأن الله خلق الوحدة في كل شيء، وهو نفسه واحد: «والهكم إله واحد لا إله الا هو الرحمن الرحيم» (البقرة/١٦٢). فليس هناك إله للشر وآخر للخير، بل قوى غيبية تتصارع بشكل

---

(١٠) فيليب حتى، تاريخ العرب، ١٧٦/١

(١١) صبحي الصالح، النظم الاسلامية، ص ١٨٧

(١٢) الصافات/١٠٣

(١٣) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١٧٧/١

شياطين على رأسهم إبليس، وملائكة على رأسهم جبريل، وعلى الانسان ألا ينقاد للشر.

٢ً ـ كما دعا الاسلام إلى الايمان بالانبياء والوحي. وقد ذكر القرآن العـديد من الأنبيـاء كاسحق ويعقـوب وموسى وعيسى (المسيح) وابراهيم، داعياً إلى الايمان بهم. ومعنى ذلك أن على الناس التعلم ممن يعلمهم. كما دعا إلى الايمان بالكتب المقدسة (التوراة ـ الانجيل ـ القرآن) لأنها تحتوي على تعاليم الله.

٣ً ـ يقودنا هـذان الأمران ـ الايمـان بالأنبيـاء وبالكتب المقدسة ـ إلى أمرين مهمين في ما يختص بالعقائد هما: أن محمداً رسول الله وخاتمة الانبياء، وأن القرآن كلام الله.

أ ـ فمحمد رسول الله: وقد ذكر ذلك في عدد كبير من الآيات القرآنية. وجاء أنه خاتمـة الأنبياء[١٤]، وأعـظمهم. وهو بشر حمل للناس كلمة الله: القرآن. والقرآن هو المعجزة التي أتمّها على يده[١٥].

ب ـ والقرآن كلام الله[١٦]: آخر كتاب منزل حمله آخر الأنبياء؛ وهو أعظم العجائب. وجميـع ما جـاء في القرآن يطابق ما حفر على اللوح المحفوظ في السماء. لهذا السبب

(١٤) الأحزاب/٤٠
(١٥) النجم/٥ ـ ٧ وغيرها.
(١٦) التوبة/٦، الفتح/١٥، وغيرها.

نجد المؤرخين يعتبرون أن أول ما خلق الله خلق القلم(١٧) وقال له أجرِ فجرى بما هو كائن.

٤ ً- كذلك دعا الاسلام إلى الايمان باليوم الأخير، بالبعث، وبالثواب والعقاب - أي محاسبة الانسان على أعماله بعد الحياة، فان آتى خيراً، جوزي خيراً، وإن شراً فشرّ. فبعض الناس يخلد في الجنة حيث الحوريات ومياه الكوثر، والثاني يخلد في النار، حيث الألم والحسرات. وفي هذا سورة كاملة هي «سورة القيامة»، يُتَحَدَّثُ فيها عن الحشر والأمور التي ذكرنا. وهذه الحياة الثانية هي هدف الانسان الذي يسعى إلى بلوغه عبر حياته في الدنيا. بذلك تحونت حياة العربي العَلُوق بالأرض، المرتبطة بالعدم، إلى ما هو نقيضها، فراح يزهد في الدنيا لنيل الثواب، ودخول الجنة.

هذه، بشكل عام، العقائد الرئيسة في الاسلام. وهي، كما نلاحظ، قريبة جداً من عقائد الأديان السماوية، نعني المسيحية واليهودية، إلا في أمر واحد تفترق فيه كلها هو طبيعة المسيح وهويته.

٢ - الأعمال: وفرض الدين الاسلامي أعمالاً تواكب الايمان، على المسلم أن يؤديها، لا تقل أهمية عن العقائد.

---

(١٧) ابن الأثير، الكامل، دار الكتاب العربي، ط ٤، ١٩٨٣، ١٢/١، والطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار القلم، مجهول الطبعة والتاريخ، ١٧/١

هـذه الأعمال اختلف علماء الكـلام والفـرق الاسـلاميـة في أهميتها. فالمرجئة، مثلاً، قالوا بأن الايمـان في القلب، وهو الأساس. فان لم يمارس المسلم هذه الأعمال، لم يعد كافراً. أما غيرهم فـرفض هذا. والأعـمال التي نتكلم عليها هي: الصلاة والزكاة والحج والصيـام. وثمة عمـل خامس جعله الخوارج ركناً من أركان الايمان، واعتبروه فريضـة قال بهـا النبي، وهو الجهاد[١٨].

١ - **الصلاة**: على المسلم أن يصلي خمس مرات في اليوم: فجراً وظهراً وعصراً ومغرباً وعشاءً. ولفظة صلاة مشتقة من الآراميـة أو السريـانيـة. والـدليـل أنها تكتب أصـلاً بـواو (صلوٰة)، مثل لفظة حياة (حيوٰة) وغيرها. فتنظيم القرآن للصلاة كان الأتم والأخير، لأن الصلوات التي كانت تمارس قبله لم تكن منتظمـة. وقـد ذكـرت الصـلاةَ آيـاتٌ كثـيرة جداً[١٩]، ونظمتهـا، وعينت أوقاتهـا وفُروضهـا، كوجـوب الطهور عند أدائها. ورد هذا في بعض السور المكيـة، وفي الكثير من السور المدنية، تحت لفـظة «وضوء». ومـا تحريم الخمر عند أداء الصلاة إلا فرض طقسي تقتضيه الطهـارة. وقد ذكر البخاري بعضاً من هذا[٢٠].

---

(١٨) البقرة/١٩٠و ١٨٦

(١٩) منها: الاعلى/١٥ وهود/١١٦ والأسرى/٨٠ - ٨١ والروم/١٦ - ١٧

(٢٠) البخاري، صحيح البخاري، دار الجيل، مجهول الطبعة والتاريخ، ٤٦/١ وما بعدها (كتاب الوضوء)

والصلاة يُقام بها إما مفرداً واما جماعة، من قيام وسجود وركوع. وشريطتها الرئيسة هو أن يكون أداؤها بالعربية أياً تكن لغة الناس. ومردّ هذا إلى أن القرآن كلام الله الحرفي، وهو عربي، لذلك فاللغة العربية ذات طابع ديني. ومحاكاة الله تكون بها. والصلاة هنا هي ذكر الله. والفاتحة ذات المعاني العميقة والبساطة المغرية التي تقابل «الصلاة الربانية» عند النصارى، يتلوها المسلم الورع نحو عشرين مرة في اليوم، بحيث أصبحت من أكثر الصيغ ترديداً[٢١]. وكذلك صلاة الظهر للجمعة، فهي واجب على الجميع. ومن مميزات صلاة الجمعة الخطبة التي يلقيها الامام في المسجد. وهذه الصلاة فيها تأثر كبير بالطقوس العبادية اليهودية، وبصلاة الأحد النصرانية. كما أن مقرّ الصلاة أصبح «الساحة الأولى لتدريب الجيوش المسلمة[٢٢]».

٢ - الزكاة: أو الصدقة. وهي ضريبة دينية مفروضة على الغني من أجل مساعدة الفقراء والمحتاجين. وهذه اللفظة آرامية الأصل، قديمة جداً. والدليل كتابتها أصلاً بالواو (زكوٰة) تماماً مثل لفظتي حياة وصلاة. ومعناها أعلى من معنى الصدقة، يدل على الهبة والتقديم.

وكانت الزكاة، بادئ ذي بدء، اختيارية، يدفعها الأغنياء

---

(٢١) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/١٨١

(٢٢) الموضع نفسه.

لذوي الحاجة. ولكنها ما برحت أن صارت حقاً على الغني صريحاً للفقراء، وصارت فريضة على الأرض والأرزاق بعامة. قال ابن منظور في معناها: «الزكاء... النماء والريع... وما أخرجه الثمر... والزرع يزكو زكاء... أي نما... والزكاة: زكاة المال معروفة، وهو تطهيره... وتزكّى أي تصدّق[٢٣]». نلاحظ أن اللفظة فيها معنى التطهير، وبالتالي فهي قدسية. فالزكاة عمل متعلق بالدين، لا مناص منه. إنه دفع لضريبة حاصلة لله، قال بها الرسول، وذكرها القرآن بدون تفصيل إلى جانب الصلاة. قال مثلاً: «فاذا انسلخ الأشهر الحُرُم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابعوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم». (التوبة/٥). إنها حق للفقراء على الأغنياء بموجب كلام الله: «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بما وصل إليه». (التوبة/١٠٣). وتوضح هذه الآية لنا المعنى الديني للزكاة.

أما طريقة دفعها، ومقدارها، فلم يحددهما القرآن، بل السنة والحديث. وكان هذا الأمر من صلب النظم الاسلامية، لا مجرد عمل إيمان. والسنة هي التي قسمت الزكاة إلى

(٢٣) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، مجهول الطبعة والتاريخ، ٣٥٨/١٤ (مادة: زكا)

أقسام، يعرّفها صبحي الصالح بالآتي: «زكاة على أموال التجارة، وزكاة على الذهب والفضة، وزكاة على الزروع والثمار، وزكاة على المواشي والانعام[٢٤]». فزكاة أموال التجارة هي ربع العشر من تلك الأموال؛ وكذلك بالنسبة إلى الذهب والفضة، وهذا يعادل عشرين مثقالاً. أما زكاة الزروع والثمار فقد اختلف الفقهاء فيها. فمنهم من جعلها على بعض الحبوب[٢٥]، ومنهم من عممها على الحبوب والبقول. وانقسمت إلى قسمين: فما رُوِي بالمطر أو بصورة طبيعية (أي ما كان بعلياً) فضريبته العشر. وما رواه الانسان فضريبته نصف العشر. أما زكاة المواشي فتدفع عندما يبلغ عدد الرؤوس النصاب القانوني. وقد فصّل هذا الأمر كثيراً في كتب الفقه. أما زكاة المال تحت الأرض فقسمان: منها ما جعله الله في الأرض وهو طبيعي، وضريبته الخُمس، ومنها ما جعله الانسان في الأرض من مال وحليّ وجواهر وغير ذلك، وضريبته ربع العشر. وهذه الزكوات تُصْرَف على أمور ثمانية وردت في القرآن كما يلي: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين في سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله والله عليهم حكيم» (التوبة/٢٠). بذلك ينال جباة هذه الضريبة (العاملون

(٢٤) صبحي الصالح، النظم الاسلامية، ص ٣٥٥.
(٢٥) وهي الحبوب التي تُدَّخَر وتزان. راجع: المرجع نفسه، ص ٣٥٦.

عليها)أجورهم منها، ويقسم الباقي بالتساوي على الآخرين. فالزكاة تقسم على كل هؤلاء قسمة متعادلة، ينال كل واحد منها ثُمْنٌ ($\frac{1}{8}$) أما الذين «في الرقاب» فالعبيد ممّن تمّ بينهم وبين ساداتهم عقد بعتقهم لله بمقدار من المال؛ هذا المال تدفعه الدولة من الزكاة. وابن السبيل «الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقر ماله، فانه يعطى من موارد الزكاة، ولو كان من أكبر الأغنياء في بلده[٢٦]».

وفي أولى مراحل تأسيس الدولة الاسلامية كانوا يعينون جباة للزكاة، ويُناط أمر توزيعها بالدولة. ولا تكون الزكاة إلا في المجتمعات الاسلامية، لأنها أمر متعلق بالمسلمين فحسب. وهذه القضية كانت قريبة من ضريبة أداها عَرب الجنوب لآلهتهم قديماً، وكانوا حضراً.

٣ ـ الحج: وهو مفروض على كل مسلم ومسلمة ما أستُطيع إليه سبيل. ومعنى الحج هو «زيارة البيت الحرام مرة في العمر في حين مُعَيَّن من السنة. والعمرة أقل أهمية من الحج، وهي عبارة عن زيارة لمكة يقوم بها المسلم متى شاء وفي الوقت الذي يريد[٢٧]». وفريضة الحج كانت منذ أيام النبي ـ وهو أول من حج إلى البيت الحرام.

---

(٢٦) المرجع نفسه، ص ٣٥٥.
(٢٧) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ١٨٤

ولطريقة الحج طقوس خاصة، على المسلم اتباعها في الصلاة وتأدية الواجب: «يلج الحاجّ العتبات المقدسة محرّماً (لابساً الازار وهو قطعة واحدة من قماش غير مخيط)، فيطوف حول الكعبة ثم يتم السعي[٢٨]، أي يجتاز سبع مرات بين جبل الصفا وجبل المروة. ولا يبدأ الحج الحقيقي إلا بالمسير إلى عرفة[٢٩] في اليوم السابع من ذي الحجة. أما الوقوف في المواقف فعند حرمي عرفة، وهما المزدلفة وَمِنًى، ورمي الجمار (الحجارة) يتم على الطريق المؤدية إلى وادي منى عند جمرة العقبة. ثم تقدم الذبائح عند منى. وتكون الأضحية من بهيمة الأنعام، أي بدنة من الابل أو الغنم أو إحدى ذوات القرون، يذبحونها في العاشر من ذي الحجة وهذا هو عيد الأضحى الذي يحتفل به المسلمون أينما كانوا في الأرض. وبه تنتهي فريضة الحج رسمياً. وعلاوة على بعض الأمور التي حُظِّرت على المسلم أثناء صيامه، فانه قد فُرض على الحاج، ما دام محرماً، أن يراعي شروط الأحرام والمناسك التي تقتضي ألا يسفك دماً أو يقتل صيداً أو يقتلع نبتاً. ومن بعد حلق الرأس يخلع الحج أحرامه ويُحلّ[٣٠]». هذا الطواف في الحج

(٢٨) يقوم المسلمون بالسعي تذكاراً لما جاء في الأحادث من أن هاجر سعت سبع مرات بين الصفا والمروة طلباً للماء لارواء غليل ابنها اسماعيل.

(٢٩) عرفة اسم الوادي وعرفات اسم الجبل، ولكن اللفظتين يترادف استعمالهما كثيراً.

(٣٠) الموضع نفسه.

كان مشهوراً أيضاً عند الوثنيين العرب في حجهم إلى الأماكن المقدسة، إذ كان الجاهلي يستلم إساف أولاً، ثم الركن الأسود، ثم يمر عن يمينه ويطوف بحيث تكون الكعبة عن يمينه. وعندما يختم طوافه سبعاً، يستلم الركن (الركن الحطيم)، فنائلة (إحدى آلهة قريش)، فيختم بها طوافه، ثم يخرج ويلبس ثيابه، ولا يطوف، بعد، عرياناً.

تلك كانت الشعائر التي وجب اتباعها في الحج. ومن الملاحظ أن هناك اقتراباً من بعض الطقوس اليهودية، والسامية بشكل عام. والحج نفسه إلى الأماكن المقدسة كفريضة كان من تشريعات العهد القديم (التوراة) في سفر الخروج. وربما كان هذا الأمر مرده إلى عبادات أقدم من هذه، كعبادة الشمس، إذ يستقبل الوثنيون في مثل ذلك الوقت قزح إله الخصب والرعد.

والشعوب وفدت إلى الكعبة من جميع أقطار العالم. وأكثر من يحج ذكور إلا قلة من النساء. ومن مات في طريق الحج اعتبر من الشهداء. كما كان الحجاج قديماً يَفِدون إلى مكة على الإبل، أو سيراً على الاقدام، حتى يبلغوا شاطئ البحر الأحمر، وهناك تحملهم قوارب خاصة إلى الشاطئ المقابل. لكن المشقة الآن سهلت بوجود وسائل النقل. ولقد درجت عادة المحامل القديمة بكثرة منذ القرن الثالث عشر الميلادي، ويقال إن منشأ هذه العادة كان سببه الحجاج بن يوسف،

وقيل غيره. ولعل هذه الفريضة كانت رمزاً لدعوة الاسلام إلى قتل التمييز العنصري، بحيث اجتمع الحجاج من كل حدب وصوب، ومن كل لون وعرق في البيت الحرام، وادى هذا إلى نشر الدين الاسلامي بشكل أوسع في العالم.

٤ً - **الصيام**: هو صيام رمضان، أي الانقطاع عن المأكل والمشروب حتى موعد الغروب الذي يؤذن به[٣١]. ويكون الصيام إما على أنه نذر أو توبة. وقد ورد أن شهر رمضان هو شهر الصيام: «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، فمن شهد منك الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدّةٌ من أيام أُخَرَ يريد الله بكم اليُسر ولا يريد بكم العسر وَلتكملوا العدة ولتُكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون» (البقرة/١٨٤).

وكان النصارى واليهود قد عرفوا الصيام من قبل. ولفظة الصوم (أو الصيام) وردت في السور المكية مرة واحدة بمعنى الصمت على ما يبدو. كما كان النبي يصوم عاشوراء في العاشر من محرّم كما ذكر بعضهم[٣٢].

بشكل عام، يشكل الصيام أحد أركان الفرائض الاسلامية، دعم به الاسلام أركانه، وجعله في رمضان.

(٣١) البقرة/١٨٣
(٣٢) كان اليهود يصومون أيضاً في هذا التاريخ كما جاء في سفر اللاويين (٢٩/١٦)

تلك هي الفرائض التي وجب على المسلم القيام بها. على أن الخوارج زادوا عليها الجهاد، وهو ما سنأتي على ذكره.

* **الجهاد:** يقول إدمون رباط إن الجهاد كان من أجل حماية الاسلام المضطَهَد(٣٣). ويراد بالجهاد محاربة الكفّار وكل من خرج على الدين الاسلامي. والحق أن الجهاد ركن من أركان الدين، وإن لم يُصرِّح به كفريضة. وقد كان سبباً مهماً في الفتوحات الاسلامية، وفي امتداد رقعة الامبراطورية الاسلامية إلى أقاصي الأرض. قال الامام علي: «الجهاد باب من ابواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه». من هنا، نلاحظ أن وظيفة الخليفة المسلم كانت بسط نفوذ دولته حيوياً على حساب الدول الأخرى بوساطة الحرب التي لم يكن لها، اساساً، طابع دنيوي، أي أنها حرب دينية، لإكمال العقيدة. وقد قال القرآن: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتوهم واخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد بلاء من القتل ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين» (البقرة/١٨٩ ـ ١٩٠). واضح من هاتين الآيتين أن الدعوة إلى القتال كانت صريحة. وقد طبق الخوارج هذا المبدأ،

---

(٣٣) Edmond Rabbat, Mahomet- Prophète arabe et fondateur d'état, p 112.

واشتركت النساء في القتال مع رجالهنّ؛ «فقد حدثنا الرواة عن كثير من نسائهم أبلين في القتال خير بلاء[٣٤]». ولعل الخوارج كانوا أول من دعا إلى الجهاد كركن من أركان الدين الاسلامي. فهو باب للجنة، على حدّ تعبير الامام علي، وعلى المسلم أن يطرقه.

(٣٤) احمد أمين، فجر الاسلام، ص ٢٦٤

* الجهاد. يقول إدمون رباط إن الجهاد كان مركز الحماس في تعاليم الإسلام العسكرية(٣٣). ويراد بالجهاد محاربة الكفار وكل من خرج على الدين الاسلامي. والحق أن الجهاد ركن من أركان الدين، وإن لم يُصَرَّح به كفريضة. وقد كان سبباً مهماً في الفتوحات الاسلامية، وفي امتداد رقعة الامبراطورية الاسلامية إلى أقاصي الأرض. قال الامام علي: «الجهاد باب من ابواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه». من هنا، نلاحظ أن وظيفة الخليفة المسلم كانت بسط نفوذ دولته حيوياً على حساب الدول الأخرى بوساطة الحرب التي لم يكن لها، اساساً، طابع دنيوي، اي أنها حرب دينية، لإكمال العقيدة. وقد قال القرآن: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد بلاء من القتل ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين» (البقرة/ ١٨٩ ـ ١٩٠). واضح من هاتين الآيتين أن الدعوة إلى القتال كانت صريحة. وقد طبق الخوارج هذا المبدأ،

---

(٣٣) Edmond Rabbat, Mahomet- Prophète arabe et fondateur d'état, p 112.

(٣٤) أحمد أمين، ضحى الاسلام، ج٣، ص ٢٤.

قائمة المصادر والمراجع

١ ـ الكتب العربية:

١ ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، ط ع، ١٩٨٣

٢ ـ ابن خلدون: المقدمة، دار إحياء التراث العربي، ط٤

٣ ـ ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، مجهول الطبعة والتاريخ.

٤ ـ ابن النديم: الفهرست، دار المعرفة، ١٩٧٨.

٥ ـ أدونيس (علي أحمد سعيد): الثابت والمتحول، دار العودة، ١٩٧٤.

٦ ـ الأصفهاني: الأغاني، دار صعب (عن طبعة بولاق)، مجهول الطبعة والتاريخ.

٧ - أمين، أحمد: فجر الاسلام، دار الكتاب العربي، ط١٠، ١٩٦٩.
٨ - أمين، أحمد: ضحى الاسلام، دار الكتاب العربي، ط١٠.
٩ - الباري: فتح الباري، مصطفى بابي الحلبي وشهاب الدين بن حجر العقلاني، القاهرة ١٩٥٩.
١٠ - البخاري: صحيح البخاري، دار الجيل، مجهول الطبعة والتاريخ.
١١ - البطل، علي: الصورة في الشعر العربي، دار الاندلس، ط ٣، ١٩٨٣.
١٢ - البغدادي: الملل والنحل، دار المشرق، ١٩٧٠.
١٣ - الجاحظ: البيان والتبيين، الشركة اللبنانية للكتاب، ١٩٦٨.
١٤ - حتي، فيليب وادوار جرجي وجبرائيل جبور: تاريخ العرب (مطول)، دار الكشاف، ط ٤، ١٩٦٥.
١٥ - الشهرستاني: الملل والنحل، دار المعرفة، ١٩٨٤.
١٦ - الصالح، صبحي: النظم الاسلامية، دار العلم للملايين، ط ٢
١٧ - ضيف، شوقي: العصر الجاهلي، دار المعارف، ط ٨.
١٨ - ضيف، شوقي: العصر الاسلامي، دار المعارف، ط ٧.

١٩ ـ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، دار القلم، مجهول الطبعة والتاريخ.
٢٠ ـ المبرد، الكامل: مكتبة المعارف ـ بيروت، مجهول الطبعة والتاريخ.
٢١ ـ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الاندلس، ط ٣، ١٩٧٨.
٢٢ ـ نادر، ألبير نصري: أهم الفرق الاسلامية السياسية والكلامية، المطبعة الكاثوليكية، ط ١.
٢٣ ـ الندوي، ابو حسن علي: رجال الفكر والدعوة في الاسلام، دار الفتح (دمشق)، ط ٢، ١٩٦٥.

٢ ـ الكتب المعرّبة:

١ ـ سوذرن، ريتشارد: صورة الاسلام في أوروبا في العصور الوسطى، تعريب: رضوان السيد، معهد الانماء القومي، ط ١، ١٩٨٤.
٢ ـ فلهلم، رودلف: صلة القرآن باليهودية والمسيحية، تعريب: عصام الدين حنفي ناصف، دار الطليعة، ١٩٧٤.

٣ ـ الكتب الفرنسية:

- Rabbat, Edmond: Mahomet-Prophète arabe et fondateur d'état, Publication de l'université libanaise, Beyrouth, 1981

٤ ـ الصحف والمجلات:

١ ـ رودنسون، مكسيم: هل استفاقت التهامية الاسلامية، العمل ١٩٧٩/١/٣.

٢ ـ رودنسون، مكسيم: هل استفاقت التهامية الاسلامية، العمل ١٩٧٩/١/٤.

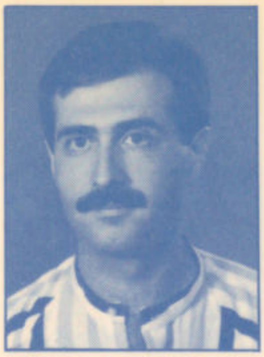
٣ ـ مجهول المؤلف: بدأت الحرب الاسلامية الكبرى، العمل ١٩٧٩/١/٢.

٤ ـ الملك فهد: الأمير فهد لنيوزويك: نحن لا نخاف على ثرواتنا، الأنوار ١٩٧٩/١/٢٢

٥ ـ نصار، هادي: إحذروا من استفاق في المنقـطة، النهار ١٩٧٩/١/٢١.

الفهرس

- الاسلام وأهل الذمة:



من مواليد ساقية المسك (قضاء المتن) في لبنان. تدرّج في دروسه حتى بلغ الجامعة، وتخرج من الجامعة اللبنانية يحمل شهادة «الدكتوراه اللبنانية» (وهي تعادل دكتوراه دولة) سنة 1988، وكانت هذه أول شهادة دكتوراه تمنحها الجامعة اللبنانية لطالب فيها. عمل في التدريس، ومارس الصحافة ردحاً من الزمن.

نشر أبحاثاً عديدة في عدد من الصحف والمجلات المختصة المعروفة في العالم العربي، كالفكر العربي المعاصر، ومجلة الباحث، ومجلة مواقف، وسواها. له عدد من المؤلفات، بعضها نشر وبعضها قيد النشر.